قتل أمة

مذكرات

هنري مورغنطاو

السفير الأميركي في تركيا ما بين (١٩١٣ - ١٩١٦)

عن المذابح الأرمنيّة في تركيا

ترجمة الدكتور

الكسندر كشيشيان

اهداء :
www.A-Olaf.com

قتل أمة

مذكرات

هنري مورغنطاو

السفير الأميركي في تركيا ما بين (١٩١٣ - ١٩١٦)

عن المذابح الأرمنيّة في تركيا

ترجمة الدكتور

الكسندر كشيشيان

شركة دلتا

لكزارة وعبجي

حلب - السياحي - هاتف: ٤٢٣٩٣١

دار أسامة

دمشق - مكتب عنبر - تلفون ٤٣١٤٨٠ - ص.ب ٤٣٠٦ تلكس ٤١٢٨٩٥ KARAM

بيروت - شارع مار الياس - تلفون ٣٦٢٤٩٤ - ص.ب ٢٤٤٦ تلكس ٤٢٣٨٩ TABBAA

THE MURDER OF A NATION

by

HENRY MORGENTHAU

American Ambassador to Turkey
1913 - 1916

Preface by

PROF. W. N. MEDLICOTT

Stevenson Professor of International History, University of London, Emeritus, Editor in Chief of Documents on British Foreign Policy since 1965.

Illustrated

Published by
ARMENIAN GENERAL BENEVOLENT UNION OF AMERICA, INC.
628 Second Avenue, New York, New York 10016

عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية

السفير الأمريكي هنري مورغنطاو

الاهـــداء

أهدي هذه الترجمة العربية، لشهداء الأمتين الأرمنيـة والعربية، من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي، وفي كل شبر من أرض أرمينيا التاريخيـة الـكبرى في ذكـرى استشهادهـم الخامسة والسبعين (١٩١٥ــ ١٩٩٠)، على يد سلاطين بني عثمان والاتحاديين العنصريين.

المترجـم

رؤيــة أخــرى فـي
«قتــل أمــة»

الدكتـور عمـر الـدقـاق

بين يدي القارئ العربي اليوم، كتاب هام جديد يحمل عنواناً مثيراً هو: (قتل أمة). انه واحد من كتب كثيرة صدرت قبله، وسوف تصدر بعده في هذا الموضوع، موضوع القضية الأرمنية. وقد تناول فيه مؤلفه مجمل المحن والنكبات التي تعرض لها الأرمن تحت وطأة الحكم العثماني ــ التركي في إطار ما كان يعرف في أوائل هذا القرن العشرين بالمسألة الشرقية، أو بجانب هام منها، هذه المسألة التي كانت القضية العربية والقضية الأرمنية تشكلان أبرز وجوهها الشائكة والمعقدة.

على أن هذا الكتاب الصغير يكتسب أهمية خاصة من جوانب عدة، أولها أن كاتبه ليس تركيا دأبه التحامل على خصومه الأرمن، ولا أرمنيا همه التعاطف مع أشقائه الأرمن، كما لم يكتبه باحث عربي مشدود شعورياً إلى أواصر الصداقة التقليدية بين العرب والأرمن ونضالهم المشترك خلال حقبة قاتمة من التاريخ الحديث. ولكن صاحب الكتاب دبلوماسي أمريكي كان يمثل بلاده لدى الدولة العثمانية. وأمريكا في إبان الحرب العالمية الأولى كانت دولة من الدرجة الثانية من حيث القوة والأهمية في المجتمع الدولي بالقياس إلى بريطانيا وألمانيا وفرنسا. ولعل الأهم من ذلك أنها كانت دولة محايدة في خضم الصراع الدولي، كما كانت سياستها بالإجمال سياسة مسالمة مالبثت أن تجلت في المبادئ الستة السلمية المشهورة التي أعلنها رئيسها (ولسن)، وذلك قبل أن تتحول أمريكا بهذه السياسة في أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى خط مغاير، وتسفر عن وجهها البشع لتغدو أكبر دولة إمبريالية عاتية في هذا العمر.

وفي ضوء ذلك بوسع قارئ الكتاب أن يرى في قلم هذا السفير هنري مورغنظاو قلماً محايداً إلى حد كبير ينطلق في معظم كتاباته من منطلق إنساني لا يطيق ظلم الانسان لأخيه الانسان.

وأهمية هذا الكتاب أيضاً تتجلى في أن صاحبه ليس بالمعنى الدقيق مؤلفاً أو باحثاً، ولا كاتباً أو مؤرخاً، ولكنه بحكم موقعه ومنصبه الدبلوماسي كان يعيش في عاصمة الامبراطورية العثمانية، ويحيا في غمار الأحداث السياسية الجائحة، كذلك قدر له في الوقت نفسه أن يواكب ظروف الصراع المرير بين الحكام الأتراك والمواطنين الأرمن، وأن يكون شاهداً على وقائع الاضطهاد العنيف لجموع الأرمن من قبل العنصريين الأتراك. ومن هنا فإن المعلومات الهامة التي أوردها الكاتب السفير مورغنطاو هي في واقع الأمر مشاهدات من قرب ومعاينات من كثب، تم تدوينها في حينها، ثم أحسن صاحبها حين ذكر

بتواضع أن ما قدمه إلى القراء في العالم ما هو سوى مذكرات، مذكرات دبلوماسي كبير شاهد بحكم منصبه السامي ما شاهد من مآسٍ وفجائع ومن نكبات ومذابح. كما أتيح له أيضاً من خلال منصبه الرفيع أن تكون بين يديه تقارير ووثائق قلماً تتاح لغيره من سائر المهتمين بهذا الموضوع.

وهذا الكتاب يوجز أيضاً الحديث عن كثير من أعمال التهجير الجماعي والإبادة بالجملة لجموع السكان الأرمن، وما صاحب ذلك من تجويع وإذلال وانتهاك للأعراض وسلب للممتلكات تحت سمع الحكام العنصريين وبصرهم، بل بإيعاز منهم وتخطيط بأيديهم. ولا ريب في أن من يقلب صفحات الكتاب يلمس مدى الحقد البالغ والسادية المفرطة ضمن قلوب لم تعرف الرحمة إليها سبيلاً.

كانت الفظائع ترتكب على أوسع نطاق دون أن يدري المجتمع الدولي والرأي العام العالمي من واقع الأمر إلا النزر اليسير. فالصحافة العالمية لم يكن يتاح لها أن تعرف حقيقة ما يجري في أرجاء الامبراطورية المتباعدة وأقاليمها الداخلية، كما أن إهتماماتها كانت منصبة على تغطية وقائع الحرب الطاحنة ومستجدات أحداثها المتلاحقة. ولهذا لم يكن أحد يستطيع أن يفعل أي شيء لإيقاف هذه المآسي الرهيبة.

وقد أورد صاحب المذكرات أنه لم يكن بوسع دول إنكلترا وفرنسا أن تفعل شيئاً لإيقاف الاضطهاد وتخفيف آلام الأرمن، لأنها كانت في حالة حرب مع تركيا. وحتى أمريكا نفسها، لم يكن لها هذا الثقل السياسي الكبير الذي يؤهلها للضغط على حكومة الأتراك والتأثير الفاعل في سياستها. وهنا يبين السفير مورغنطاو مدى مسؤولية ألمانيا في هذا الصدد لأنها كانت الدولة الوحيدة القادرة على ردع حليفتها تركيا عن سلسلة مظالمها الرهيبة. بل أن ألمانيا في واقع الأمر كانت قد أعطت الضوء الأخضر فيما يبدو لحليفتها وأطلقت

يدها تجاه الأرمن. وقد كشف المؤلف عن مواقف حاقدة للسفير الألماني في الآستانة (فانكنهايم) الذي كان يعكس سياسة بلاده بلؤم وخبث، وقد صرح مرة في كثير من اللامبالاة بأنه (من حق الأتراك أن يفعلوا بالأرمن ما يرونه ضرورياً لحماية مؤخرتهم وهم في حالة الحرب)، وحين تمت مواجهته بأعمال التهجير والاضطهاد وسكوته المخجل عنها قال دون حرج: (سأساعد الصهاينة ولكنني لن أفعل شيئاً من أجل الأرمن أبداً...).

ومع أن في كتاب (قتل أمة) ما يسترعي اهتمام القراء لدى شعوب العالم كافة باعتبار أن ما حدث قبل حين في هذه الربوع الشرقية جزء لا يتجزأ من مسيرة تاريخ البشرية القريب، فلا شك أن الأرمن أنفسهم جديرون أن يكونوا أكثر إهتماماً بمضمون هذا الكتاب لأنه يتناول أدق مراحل وجودهم ويصور أقتم صفحات تاريخهم.

على أن هذا الجيل العربي إلى جانب الجيل الأرمني هو الأجدر بأن يهتم (بقتل أمة) أكثر من أي شعب آخر، وذلك من الوجوه التالية:

١ ــ إن العرب والأرمن شعبان صديقان عاشا معاً بوئام وسلام منذ عهود سحيقة قد ترجع إلى عهد مملكة أورارتو الأرمنية قبل نحو أربعة آلاف سنة.

٢ ــ في الكتاب حقائق تاريخية منصفة وردت على لسان هذا المؤلف الأجنبي، وهي جديرة بتقدير العرب الذين يفتقدون الموضوعية والانصاف في كثير من كتابات الأجانب والمستشرقين. فقد أشاد بحضارة العرب مبيناً أن الترك أخذوا منهم الدين الإسلامي واعتنقوه، وأخذوا منهم أبجدية الحروف العربية لكتابة لغتهم التركية، كما اعتمدوا على مهارة الأرمن وبراعتهم في المجال الصناعي، على حين لم يكن الترك أصحاب حضارة، فهم حكموا شعوباً

وقوميات أرقى منهم، ولم يكن لهم من فضائل سوى ممارسة القتال وخوض الحروب.

٣ ــ يقع القارئ العربي أيضاً على نقاط هامة في كتاب تبدو مشرقة للعرب ولغالبيتهم من المسلمين، حين استقبلوا في مدينة حلب جموع الأرمن المهاجرين بالترحيب، فواسوا جراحهم وأعطوهم الكساء وقدموا لهم الغذاء.

وأغلب الظن أن الأوساط الثقافية على اختلاف اتجاهاتها سوف تتلقى هذا الكتاب بحفاوة بعد أن بقي أكثر من سبعين سنة مسطوراً بلغته الإنكليزية بعيداً عن عيون القراء العرب. والآن ها قد ظهرت الترجمة العربية، بفضل الطبيب الدكتور الكسندر كشيشيان أحد الوجوه الثقافية البارزة في حلب والمعروف بنشاطه الاجتماعي والثقافي في الجمعيات الثقافية الأرمنية. وقد تطوع المترجم مشكوراً لدعم متن الكتاب بتعليقات ضرورية وحواش توضيحية تعد إضافة مفيدة إلى مادة الكتاب الأساسية التي مضت عليها أعوام كثيرة.

ولعل من أهم متممات هذا الكتاب إثبات نص الوثيقة التاريخية الرسمية الهامة (مع صورتها الأصلية) التي يتجلى فيها نبل العرب وصداقتهم الراسخة للأرمن، انه الفرمان الذي أصدره سنة ١٩١٧ زعيم الثورة العربية الكبرى وشريف مكة الحسين بن علي. فقد بعث بخطاب إلى الأمراء في الولايات العربية وشيوخ القبائل يوصيهم جميعاً برعاية أبناء الطائفة الأرمنية وفق ما أمرهم به دينهم الإسلامي ورسولهم الكريم، وأن يحافظوا على الأرمن كما يحافظون على أنفسهم وأموالهم وأبنائهم.

وبعد، إن تسليط الأضواء على الشرور والمحن وعلى النكبات والمآسي لهو خير سبيل لاستخلاص العبر من التاريخ، أملاً في تجنب المزيد من الويلات تجاه الشعوب الآمنة حتى ترفرف راية الطمأنينة والسلام فوق رؤوس البشر كافة.

وكما تترك الدول مبنى متهدماً أو كنيسة مخربة رمزاً للأهوال والدمار، وتذكيراً بمعاناة الناس والأطفال والنساء، كذلك من المفيد أن تنكشف للأجيال مثل هذه الفظائع التي يرتكبها المتعصبون العنصريون من طورانيين وفاشيين ونازيين وصهيونيين ...

وعسى أن يتبوأ هذا الكتاب الصغير بحجمه منزلة كبيرة الدلالة في نفوس قرائه العرب، ولا سيما أن ما حدث بالأمس في أماكن عديدة من ربوع تركيا حدث نظيره في ربوع فلسطين، بل يحدث في كل مطلع شمس من إذلال واضطهاد وقتل وتهجير. ومهما طالت الليالي فلا بد أن ينبلج الصبح، وإذ ذاك يغدو كل شعب مقهور سيداً في وطنه.

كلمــة مــن القلــب

خمس وسبعون سنة مضت على تنفيذ أكبر مذبحة في تاريخ البشرية الطويل . قتل في شهور قليلة بتخطيط وتنفيذ من قبل الحكومة التركية عام ١٩١٥ مليون ونصف من الأرمن ، ونفي الباقي إلى صحاري بلاد ما بين النهرين ليموتوا من الجوع والتعب والأمراض . فرّغت أرمينيا التاريخية من سكانها الأصليين الذين عاشوا هناك لمدة أربعة آلاف سنة بشكل متواصل واحتلت مكانهم قبائل تركية متأخرة متخلفة وبذلك انطفأت شمعة الحضارة في مناطق الأناضول الواسعة .

رغم ذلك لايزال الحكام الأتراك حتى يومنا هذا ومع دخول العالم عصر التآخي والفضاء يحافظون على أفكارهم البانتركية والبانطورانية العنصرية بكل وسائلهم المرئية والمقروءة ، ويحلمون بإقامة دولتهم الواسعة من شمال الصين حتى بلغاريا حيث تشكل تركيا القلب النابض لهذه الأصقاع الواسعة . (انظر إلى برامجهم التلفزيونية اليومية) انهم يتبجحون ليل نهار بأن تركيا ستصبح من القوى العظمى في العالم وأكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط في نهاية هذا العقد حيث سيصبح عدد سكانها سبعين مليوناً .

عانى العرب والأرمن من مظالم هذه السياسة العنصرية ومن التتريك ووصل الشعبان إلى

حالة من الانحطاط الشامل. إن الشعب العربي الذي نقل حضارته الانسانية الكبيرة إلى ظلمات أوروبا بدأ هو نفسه يشكو من التأخير والجهل بسبب هذه السياسة الغاشمة. فلا عجب أن شخصيتين عالميتين مثل شكسبير وفيكتور هوجو قالا: «من هنا مرّ الأتراك» فأصبح قولاً مأثوراً عند شعوب المنطقة.

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدأت الشعوب المظلومة المحتلة تفيق من ثباتها العميق وتشعر بوجودها القومي وذلك بسبب كفاح وتضحية مفكريها الوطنيين. وبنشوء حركات التحرر والأحزاب الوطنية التي كانت تدعو إلى التخلص من حكم الأتراك بالكفاح المسلح والعيش بسلام على أرض الوطن. التقى أحرار العرب والأرمن ومنهم رزق الله حسون (حسونيان) وإسكندر ابكاريوس وأديب اسحاق في بلاد الشام وأوروبا وفي اللواء السليب خاصة، وعقدوا الندوات الفكرية والسياسية وحاربوا الأتراك جنباً إلى جنب بالسلاح في لواء اسكندرون. إن التاريخ حافل بالأمثلة الرائعة على هذه البطولات المشتركة في جبل موسى واسكندرون وانطاكية وفي كل شبر من الوطن السليب.

ظن الأتراك بأن العرب المسلمين سيكملون ما بدأوه هم في إبادة الأرمن، ولكن العرب المسلمين عامة وعرب بلاد الشام بشكل خاص لم يؤووا الأرمن في بيوتهم فحسب بل بسطوا حمايتهم عليهم واهتموا بهم على مستوى الدولة والشعب لتخفيف آلامهم وتسهيل الحياة لهم. أعطى العرب الأرمن حريات واسعة في فتح المدارس لتدريس اللغة الأرمنية بحرية وسمحوا لهم بممارسة شعائر دينهم وإقامة محاكم روحية خاصة بهم. إن الأرمن الذين تشتتوا في كل أصقاع المعمورة يكنون شعور الشكر والعرفان العميقين للشعب العربي السوري بشكل خاص.

يعيش الأرمن حالياً حياة رغيدة في البلاد العربية وذلك بسبب روح تسامح العربي تجاههم. لم يشعر الأرمني طوال هذه المدة بأنه غريب وغير مرغوب فيه في البلدان العربية، بل على العكس شعر بإنسانية ونبل شعور الانسان العربي تجاهه وذلك منذ اللحظة الأولى لوصوله إلى القرى العربية الحدودية كمهاجر. دخل المواطن السوري الأرمني ــ كذلك في بقية البلدان العربية ــ مع أخيه العربي في معترك الحياة العربية من بابها العريض واشترك في تطور البلاد صناعياً وتجارياً واقتصادياً وشارك أيضاً في ضريبة الدم ضد العدو الصهيوني المشترك. وطوال هذه المدة أظهرت الجاليات الأرمنية المنتشرة في ثمانين دولة في العالم الوجه الانساني للانسان العربي شفهياً وكتابياً.

فلا عجب إذن بأن تتآخى العلاقات العربية ــ الأرمنية على هذا الشكل وخاصة أن هذه العلاقات تمتد جذورها إلى قرون عديدة موغلة في القدم.

لقد جرى أول احتكاك واسع بين الأرمن والعرب عندما كان هذان الشعبان يعيشان ضمن الامبراطورية التي أقامها دكران الكبير في سورية ولبنان وفلسطين في القرن الأول قبل الميلاد. لكن العلاقات العميقة والمميزة بلغت أوجها أيام الخلافة العربية من القرن السابع وحتى القرن التاسع الميلادي عندما كانت أرمينيا ضمن الامبراطورية العربية الواسعة.

في هذه الفترة قدم العلماء من الطرفين دراسات قيّمة عن تلك الحقبة. فلا يمكننا إلّا أن نذكر المؤرخين العرب من أمثال الطبري والمسعودي وابن الأثير والجغرافيين والرحالة من أمثال ابن بطوطة وابن الفقيه وياقوت الحموي الذين كتبوا عن أوجه الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في أرمينيا التاريخية وخاصة عن مملكة كيليكيا الأرمنية.

بعد الفتوحات العربية الإسلامية ترجم كتاب المؤرخ الأرمني أكاتانكيفوس (تاريخ الأرمن) إلى اللغة العربية ودرس المسعودي الملحمة الأرمنية الشهيرة (آرا وشاميرام) في كتابه (مروج الذهب ومعدن الجوهر). كذلك درس الأدباء الأرمن الأدب العربي وأعرب المفكر الأرمني من القرن الحادي عشر كريكور ماكيستروس عن إعجابه الشديد بشعر المتنبي وقصة (ألف ليلة وليلة).

امتد التعاون الأرمني العربي إلى مجال الطب حيث كان الأطباء الأرمن والعرب يعملون جنباً إلى جنب في مستشفيات مملكة كيليكيا ويتعلم الأطباء العرب تشريح جثة الانسان بسبب عدم السماح بذلك في الدولة العربية شرعاً آنذاك. ومن أشهر الأطباء السوريين الذين درسوا التشريح هناك أبو سعيد الذي كانت له علاقات حميمة مع الأمراء ورجال الدين والأطباء الأرمن. كتب أبو سعيد بعد ذلك كتاباً قيّماً سماه «تشريح الانسان» الذي درّس في الدولة العربية ومملكة كيليكيا في القرون الوسطى. إن النسخة العربية مع الأسف مفقودة تماماً ولكن هناك من حسن الحظ نسخة أرمنية ترجمت في حينه من العربية وهي الآن محفوظة في دار المخطوطات في أرمينيا السوفييتية وفي متناول يد الباحثين العرب والأجانب.

امتد التعاون العربي ــ الأرمني إلى المجالات السياسية والعسكرية أيضاً وهناك أمثلة عديدة نقدم بعضاً منها فقط.

عندما كان مروان بن محمد حاكم أرمينيا (أصبح خليفة فيما بعد) هاجم الخزر أرمينيا

ولكنهم ردّوا على أعقابهم في عام ٧٣٧ م من قبل الجيش العربي وكان يساعد مروان جيش أرمني بقيادة الأمير آشود بقرادوني . بعد استقلال أرمينيا في عام ٨٨٥ م . أصبح آشود بقرادوني ملكاً على أرمينيا التاريخية وكان الخليفة المعتمد أول من اعترف بهذه الدولة وأرسل لآشود تاجاً ذهبياً مرصعاً بالأحجار الكريمة عربوناً للصداقة . دام هذا التعاون السياسي والعسكري نحو /٢٠٠/ سنة أي حتى عام ١٠٤٥ م .

بعد القضاء على الدولة الأرمنية من قبل التتار والمغول دخل الأمراء والسياسيون والعسكريون الأرمن في خدمة الدولة العربية الإسلامية . فلا عجب أن نرى في الوفد الحكومي العربي الذي أرسله الخليفة هارون الرشيد إلى ملك الافرنج شارلمان عام ٨٠٧ م اثني عشر مستشاراً أرمنيا في الشؤون العسكرية والسياسية .

احتل الأرمن مراتب مرموقة وخاصة أيام الخلفاء الفاطميين (٩٦٩ ــ ١١٧١)م . من هؤلاء يمكننا أن نذكر أشهر القواد قاطبة ألا وهو بدر الجمالي الذي تقلد أعلى المناصب مثل الوزير الأول وأمير الجيوش وقاضي القضاة . وطد بدر الجمالي أركان الدولة الفاطمية وقمع التمرد عام ١٠٧٤ م . يذكر المقريزي وفيليب حتي أن فترة حكمه كانت تقارن بالفترة « الاسكندرانية » من الناحية العمرانية والثقافية .

اشترك الأرمن أيضاً في أعمار دولة محمد علي باشا الذي جاء إلى الحكم عام ١٨٠٥ م . اشترك الأرمن بنشاط كبير في الحياة السياسية والاقتصادية وتبوأوا مناصب عالية مثل رئاسة الوزارة والخارجية والتجارة . ظل نوبار نوباريان في منصب رئاسة الوزارة المصرية مدة عشرين سنة متواصلة (١٨٧٠ ــ ١٨٩٠)م ، وتبوأ منصب وزارة الخارجية كل من بوغوص يوسوفيان وأرتين جراكيان وأراكيل نوباريان .

اشترك الأرمن في إدارة متصرفية جبل لبنان أيضاً (تأسست هذه المتصرفية عام ١٨٦١) . توالى على إدارة أمورها ثمانية متصرفين منهم أربعة من الأرمن وكان آخرهم أوهانيس قيوجيان .

ومن الشخصيات التي دخلت الحياة الفكرية العربية أبو صالح الأرمني الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي في مصر وله مصنفات ومؤلفات قيّمة جداً منها (كنائس وأديرة مصر) الذي ترجم إلى الإنكليزية في جامعة اكسفورد عام ١٨٩٥ م .

ومن العسكريين الأرمن الذين تبوأوا مراكز كبيرة في الجيش العربي علي بن يحيى الأرمني الذي ضرب أسمى وأروع آيات البطولة والتضحية في حروبه الكثيرة ضد الروم . كان هذا

جمال باشا
سفاح العرب والأرمن قتل من قبل « كوماندوس العدالة والثأر » في مدينة تفليس (عاصمة جورجيا السوفييتية) في تموز ١٩٢٢.

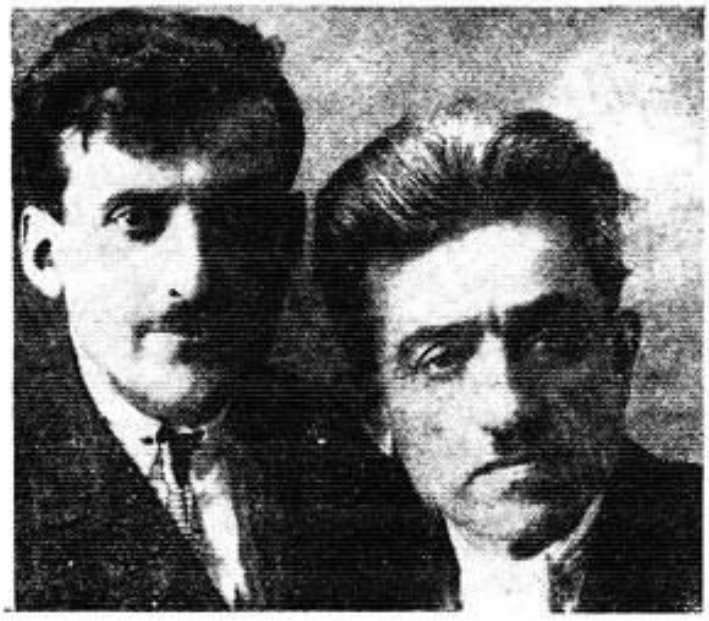

بدروس دير بوغوصيان ستيبان زاغيكيان

قتلا جمال باشا في تفليس

القائد الحاكم الفعلي لإمارات أرمينيا وجورجيا ودربند . كذلك يعتبر حسام الدين لوزون من القواد الأرمن الذين احتلوا أعلى مراتب القيادة في الأسطول العربي ويعتبر فسطاط بن وهرام مؤسس مدينة القاهرة . ومن القواد الأرمن الذين عملوا في الجيش المصري يمكن ذكر الأفضل سيف الإسلام ثم أحمد بن الأفضل ثم السعيد أبي فتح يانس ثم طلائع بن رزيك وأخيراً رزيك بن طلائع .

ومن النساء الأرمنيات اللواتي حظين باحترام كبير في قصر الخلافة بدر الدجى وقرة العين .

واليوم في ذكرى مرور خمسة وسبعين عاماً على المذابح الأرمنية /١٩١٥ ــ ١٩٩٠/ التي بدأت في ٢٤ نيسان ١٩١٥ يتطلع الأرمن في جميع مهاجرهم وفي أرمينيا السوفييتية إلى الماضي القريب ويتذكرون شهداءهم الذين دفنوا في مقابر جماعية في دير الزور والشدادة ورأس العين وعين العرب ومسكنة والمنصورة وفي تل أبيض والرقة وحلب وعلى جميع الطرقات التي تؤدي إلى هذه المدن ويطأطئون رؤوسهم بخشوع واحترام كبيرين لأن أرض سورية المضيافة أصبحت في الواقع أكبر موطن للشهداء الأرمن في العالم حيث قتل من قبل الأتراك في أرضها الطاهرة حوالي نصف مليون انسان .

وبهذه المناسبة لا يسعنا نحن الأرمن في جميع أنحاء العالم إلا أن نشكر الحكومات العربية والشعب العربي السوري الطيب بشكل خاص على مواقفهم الانسانية تجاه هذا الشعب الذي طالت عذاباته ولم يأخذ دوره كاملاً في الحياة حتى الآن .

المترجم

الفصـــل الأول

التركي يرتد إلى طباع أسلافه

أدّى انسحاب أسطول الحلفاء من الدردنيل إلى عواقب لم يستوعبها العالم بشكل كامل حتى الآن. وكانت النتيجة العملية لهذا الحادث، هي عزل الامبراطورية التركية عن العالم باستثناء ألمانيا والنمسا. إن إنكلترا وفرنسا وروسيا وايطاليا التي كانت لها اليد الكابحة على الامبراطورية العثمانية خلال قرن من الزمن فقدت في النهاية كل قوة للسيطرة والتأثير عليها. أدرك الأتراك الآن أنه حدثت أحداث باهرة كثيرة غيّرتهم من تابعين خنوعين إلى شركاء أحرار للقوى الأوروبية. فأصبح بامكانهم الآن ولأول مرة بعد قرنين من الزمن أن يعيشوا حياتهم القومية حسب رغباتهم وأن يحكموا شعوبهم بارادتهم الخاصة. إن أول تعبير لتجديد الشباب في الحياة القومية، هو ذلك الحدث الذي ــ لعلمي ــ هو الأول في تاريخ العالم. تركيا الحديثة التي تحررت من الوصاية الأوروبية، احتفلت ببعثها القومي بقتل ما يقارب مليوناً من اتباعها.

لا يمكنني أن أبالغ بالنتائج التي ترتبت على الأتراك بانسحاب أسطول الحلفاء. ظنّ الأتراك أنهم حقاً ربحوا المعركة الفاصلة الكبيرة. قالوا أن الأسطول البريطاني أبحر عدة قرون مظفراً في البحار، والآن ولأول مرة يُـرَدُّ على أعقابه من قبلهم. في اللحظات الأولى لخيلائهم، رأى زعماء الأتراك الجدد طيف الانبعاث الكامل لامبراطوريتهم. إن الأمة التي كانت تتفسّخ خلال قرنين من الزمن، بدأت الآن فجأة حياة جديدة متألقة بهية. في اللحظات الأولى لعجرفتهم بدأ الأتراك ينظرون بازدراء إلى الأمم التي علمتهم فنون الحرب الحديثة، وما من شيء كان يستفزهّم أكثر من القول، أنهم مدينون بالشيء الكثير لحلفائهم الألمان في نجاحاتهم. «لماذا يجب أن نشعر بأننا ملزمون تجاه الألمان؟» كان يقول لي أنور باشا «حقاً إنهم أقرضونا بعض المال وأرسلوا إلينا بعض الضباط، لكن انظر ما فعلناه نحن. إننا هزمنا الأسطول الإنكليزي الذي لم يكن بمقدور الألمان أن يدحروه ولم تستطع أمة أخرى أن تفعل ذلك. إننا وضعنا جيشاً كبيراً على جبهة القفقاس وبذلك شغلنا قوات روسية كبيرة يمكن استعمالها على الجبهة الغربية. كذلك أكرهنا الإنكليز على الاحتفاظ بجيوش كبيرة في مصر وفي بلاد ما بين النهرين، وبذلك أضعفنا قوات الحلفاء في فرنسا. لا لم يكن بمقدور الألمان أن يصلوا إلى نجاحاتهم العسكرية بدوننا».

الإنسان التركي في الأساس مُتَـنَـمِّـرٌ وجبان. هو كالأسد عندما تسير الأمور على ما يشتهي، ولكنه خنوع وخسيس وواهن الأعصاب عندما يتكالب أعداؤه ضده.

والآن عندما بدأت كفّة الحرب تميل إلى جانب الامبراطورية العثمانية بدأتُ أرى تركياً جديداً كلياً أمام ناظري. إن العثماني المتردد والخائف الذي كان يفتش له عن موطىء قدم بين السياسات المتضاربة للقوى الأوروبية، تبدّل إلى رجل منتصب القامة متغطرس، حازم وعازم على أن يعيش حياته الخاصة، يزدري أعداءه المسيحيين بكل ما في الكلمة من معنى. كنت شاهداً لعملية التغيير في علم نفس السلالات، وهذه كانت برهة كلاسيكية لظاهرة الرجوع إلى الجنس. إن تركي القرن العشرين المُـهْـمَل

والأشعث بدأ بالتلاشي وبدأ يظهر مكانه تركي القرن الثالث عشر والرابع عشر ، التركي الذي احتلّ كل الشعوب القوية في طريقه وأسس في آسيا وافريقيا وأوروبا امبراطورية من الامبراطوريات التي عرفها التاريخ .

إذا أردنا أن نقيّم بحق طلعت وأنور والأحداث التي تجري الآن ، يجب أن نفهم جيداً التركي خليفة آل عثمان وكيف استعملوا هذه القوة التدميرية الهائلة في أنحاء العالم . يجب علينا أن نفهم أولاً أن الحقيقة الأساسية في العقلية التركية هي الاحتقار المطلق لجميع العروق البشرية . إن الغرور المشوب بالخُبْل هو العنصر الذي يبيّن ، بشكل شبه كامل ، نفسية هذا الجنس البشري الغريب . إن العبارة الشائعة والاعتيادية التي يستعملها التركي للمسيحيين هو « كلب » وفي ظنه أن هذا التعبير غير مُبالغ فيه . انه ينظر إلى جيرانه الأوروبيين على أنهم أقل قيمة من حيواناته الأهلية . « يا ولدي » قال مرة أحد الآباء الأتراك « هل ترى ذلك القطيع من الخنازير ؟ بعضهم أبيض وبعضهم أسود ، بعضهم صغير وبعضهم كبير ، انهم يختلفون عن بعضهم البعض في بعض الأمور ولكن كلهم خنازير ، هذا هو الوضع أيضاً مع المسيحيين . لا تنخدع يا بني إن هؤلاء المسيحيون يلبسون الثياب الجميلة ، ويمكن أن تكون نساؤهم جميلات وبشراتهنّ بيضاء وملساء . إن أكثر هؤلاء أذكياء يبنون المدن الجميلة ويؤسسون دولاً عظيمة ولكن تذكّر أن تحت هذا الظاهر المُبْهِر تكمن حقيقة واحدة وهي أنهم خنازير » .

عملياً يعلم جميع الأجانب علم اليقين هذه المعاملة . يمكن للتركي أن يكون متأدباً لدرجة التذلل ولكن هناك شعور ثابت في لا وعيه بأنه متأخر فكرياً عن صديقه المسيحي الذي يعتبره شيئاً غير نظيف . هذا الايمان الراسخ هو الذي وجّه السياسة العثمانية لقرون عديدة تجاه الشعوب المحتلّة . هذه الجماعة المتوحشة التي اندفعت كالزوبعة من سهوب آسيا الوسطى ، سحقت شعوب بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى واحتلت مصر والجزيرة العربية ، أي عملياً كل شمال إفريقيا ، ثم تدفّقت داخل أوروبا

ودمرت شعوب البلقان واحتلت القسم الأعظم من المجر وبنت قواعد أمامية للقوات الامبراطورية في القسم الجنوبي من روسيا .

اكتشفتُ الآن أن الأتراك العثمانيين نت لهم ميزة واحدة كبيرة فقط وهي نزعتهم العسكرية . كان بينهم في الماضي زعماء عسكريون كثيرون يمتازون بالقدرات القيادية العالية . كان المحتلون الأتراك القديمون شجعاناً ومتعصبين ومقاتلين عنيدين كما هم أحفادهم الآن . أعتقد أن هؤلاء الأتراك الأقدمون يقدمون أكمل وصف عن قطاع الطرق في التاريخ . إنهم يفتقرون إلى ما نسميه نحن أساسات المجتمع المتحضّر . لم تكن لهم أبجدية ولا فنٌّ كتابة ولا كتب ولا شعراء ولا أدب ولا عمارة . لم يشيدوا قط مدناً ولم يؤسسوا دولة ثابتة . لم يعرفوا القوانين عدا حكم القوة . عملياً لم تكن لديهم لا زراعة ولا مؤسسات صناعية وكانوا ببساطة فرساناً متوحشين وغزاة ، والمفهوم الأساسي لنجاح القبيلة عندهم هو الانقضاض على الشعوب التي كانت أكثر حضارة منهم وسلبهم . في القرنين الرابع عشر والخامس عشر اكتسحت هذه القبائل مهد الحضارات التي أعطت لأوروبا ديانتها وإلى حد كبير حضارتها . في تلك الأزمنة كانت هذه الأقاليم حواضر شعوب كثيرة مسالمة وغنيّة .

كان وادي ما بين النهرين يُعيلُ سكاناً كثيفين زراعياً وصناعياً وكانت بغداد من أكبر المدن وأكثرها ازدهاراً في الوجود وكانت القسطنطينية أكثر سكاناً من روما ومنطقة البلقان وآسيا الصغرى ، كانت فيها عدة دول قوية . اجتاح الأتراك كل هذه المنطقة من العالم كقوة تدميرية هائلة وأصبحت بلاد ما بين النهرين صحراء قاحلة خلال سنين معدودة[1] ، وأصاب مدن الشرق الأوسط البؤس وأصبح سكان هذه المناطق التابعة لهم عبيداً . هذه النعم الحضارية التي حصل عليها الأتراك خلال خمسة قرون أخذت كلها من الشعوب التابعة لهم . تأتي ديانة التركي من العرب ، لغته أصبحت لها قيمة أدبية بعد

---

(١) قول مأثور لفيكتور هوجو « من هنا مرّ الأتراك » — (المترجم) .

استعاراته الكثيرة من اللغة العربية والفارسية، أما أحرفه الكتابية فهي العربية[٢]. إن أجمل أثر هندسي لمدينة القسطنطينية هو جامع آيا صوفيا الذي كان في الأصل كنيسة بيزنطية مسيحية، وما يسمى الآن بالهندسة التركية اشتُقّ أكثرها من البيزنطية[٣]. وأن آلية التجارة والصناعة كانت دائماً في يد الشعوب التابعة لها كالأرمن واليونانيين واليهود والعرب. تعلّم الأتراك القليل من الفن والعلم الأوروبيين، وأنشأوا العدد القليل من المعاهد التعليمية ولذلك كانت الأمية سائدة. كانت النتيجة أن الفقر أخذ أبعاداً كبيرة ليس له مثيل ومواز في أمكنة أخرى. إن الفلاح التركي يعيش في كوخ من الطين وينام على أرضية قذرة ولا يملك الكراسي ولا آنية الأكل، ولا ملبس غير عدد قليل يكسو به ظهره يرتديه لسنوات عديدة.

كان بامكانهم خلال هذه المدة كلها أن يتعلموا بعض الأشياء من جيرانهم الأوروبيين والعرب. لكن هناك فكرة واحدة لم يقدروا أن يدركوها ولو بشكل بسيط. لم يكن بمقدورهم أن يفهموا أن الشعوب المحتلّة هي كل شيء ما عدا عبيد.

عندما احتلوا الأرض رأوا أنها مسكونة باعداد وفيرة من الجمال والأحصنة والجواميس والكلاب والخنازير والبشر. عدّوا الانسان أقل قيمة بين كل هذه الأحياء. من الأقوال الشائعة عندهم أن الحصان أو الجمل أغلى بكثير من الانسان. هذه الحيوانات تكلف مالاً بينما «الكفار المسيحيون» متوفرون في البلدان العثمانية ويمكن أن يجبروا على العمل. في الحقيقة أعطى السلاطين الأوائل الشعوب الخاضعة في الامبراطورية بعض الحقوق، ولكن هذه الحقوق في الواقع كانت تعكس جو الازدراء الذي كان يعيش فيه غير الأتراك.

كنت وصفت سابقاً «وثيقة الامتيازات الأجنبية» وكيف أمكن للأجانب في

---

(٢) غير كمال أتاتورك الأبجدية العربية بالأحرف اللاتينية لكي يمحو كل شيء يذكّره بالعرب ــ (المترجم).

(٣) بنيت أكثر الأوابد الجميلة العثمانية على يد الأرمن واليونانيين. إن سنان المعمار الأرمني وعائلة باليان كانوا مهندسي الامبراطورية لمدة /٣٠٠/ سنة ــ (المترجم).

تركيا بموجبها أن يحصلوا على محاكمهم الخاصة وسجونهم وبريدهم ومنشآت أخرى . على الرغم من ذلك لم يعط السلاطين الأوائل هذه الامتيازات بسبب روح التسامح بل نظروا إلى الشعوب المسيحية على أنها نجسة ولذلك غير مؤهلة للاحتكاك مع النظام الإداري والقضائي العثماني . نظّم السلاطين بشكل مماثل الشعوب العديدة كالأرمن واليونانيين إلى (مِلَل) أو قوميات منفصلة لا لتعزيز حريتهم ورفاههم بل اعتبروهم طفيليات غير مؤهلة لتكون رعايا الدولة العثمانية . إن موقف الحكومة تجاه رعاياها المسيحيين كان يُـوَضَّح ببعض التعليمات التي كانت في الواقع تحدّ من حريتهم . يجب ألا تكون الأبنية التي يسكنها المسيحيون بارزة ، ويمنع على الكنائس أن تقرع الأجراس . يجب على المسيحي ألا يركب على الحصان في المدينة لأن ذلك من الحقوق المقصورة على النبيل التركي . كان يحق للتركي أن يجرّب حدة سيفه على رقبة أي مسيحي (٤) .

تصوروا حكومة كبيرة يكون موقفها بهذه الصورة تجاه اتباعها ولسنوات عديدة . عاش الأتراك كالطفيليات لقرون عديدة على الشعوب الصناعية المتحضرة . جبـوا الضرائب الباهظة إلى حد الدمار . سرقوا أجمل بناتهم وأجبِـرْنَ على الدخـول إلى الحرملك . أخذوا صبيان المسيحيين بمئات الآلاف وربوهم كجنود أتراك . ليست غايتي هنا أن أصف بالتفصيل العبودية والظلم العظيمين اللذين داما خمسة قرون ، بل هدفي التأكيد فقط على المعاملة الفطرية المتأصلة في الأتراك تجاه الشعوب التي ليست من عرقها ولا من دينها . في رأيهم ، هذه الشعوب ليست من بني البشر في حقوقها بل هي دواب فقط ، يمكن السماح لها بالعيش حينما تلبي اهتمامات أسيادها وحينما لا يكونون ذا نفع يجب أن يدمّروا بدون شفقة . هذا الموقف اشتد سوءاً مع الزمن وذلك بسبب الاستخفاف الكامل بحياة الانسان . كان الأتراك يشعرون بالبهجة الكبيرة عند انزال المآسي البدنية باتباعهم وهذه ليست حتى من شيم الشعوب البدائية .

---

(٤) مارس الأتراك هذا الحق لأول مرة على الهنود (انظر « قصة الحضارة » لويل ديورانت) — (المترجم) .

هكذا كانت الصفات الذهنية للتركي أيام عظمته العسكرية. تبدّل موقفه بشكل سطحي تجاه الاغراب والشعوب المحكومة في هذه الأيام. إن انحداره العسكري والسهولة التي انهزمت بها جيوشه الممتازة من قبل الشعوب «الكافرة» أعطت خلفاء عثمان المتعجرفين في الظاهر بعض الاحترام لهم ولبسالتهم. إن الاختفاء السريع لامبراطوريته خلال مئة عام وإحداث دول جديدة خارج الامبراطورية العثمانية كاليونان وبلاد الصرب وبلغاريا ورومانيا والتقدم المدهش الذي تبع ذلك بعد تحطم العبودية التركية في هذه البلاد الذي داهمها الليل الداكن، كل هذا زاد الحقد التركي على «الكافر». تركت هذه الأحداث الكبيرة في النهاية بعض الأثر في إزالة الغشاوة عن أهميته المزعومة.

بدأ أتراك عديدون الآن يتلقون العلم في الجامعات الأوروبية ويدرسون في المعاهد المهنية ويتخرجون أطباء وجراحين وقضاة ومهندسين وكيميائيين بالمعنى الحديث. مع كل هذا يمكن لبعض الأتراك أن يزدروا زملائهم المسيحيين لكن ليس بامكانهم أن يتجاهلوا أن أسمى الأشياء في هذا العالم الزائل على الأقل هي نتاج الحضارتين الأوروبية والامريكية. الآن وقد بَدَتْ التغييرات في التاريخ الحديث مفهومة بشكل أقل للتركي العادي، بدأت هذه التغييرات تفرض نفسها على وعي الذين كانوا أكثر ذكاء وتقدمية.

ظهر إلى الوجود بعض الزعماء وبدأوا يتكلمون خلسة عن بعض الشعارات مثل «نظام الحكم الدستوري»، و«الحرية» و«الحكم الذاتي». بدأ هؤلاء الأشخاص الجريئون يحلمون بقلب السلطان المستبد وإحلال النظام البرلماني بدلاً عنه، لأنه غير قادر على تحمل المسؤولية. وصفت سابقاً في مكان آخر عن صعود وسقوط «تركيا الفتاة» بقيادة طلعت وأنور وجمال ومساعديهم في لجنة الاتحاد والترقي. النقطة التي أريد التأكيد عليها هنا، هي أن هذه الحركة قررت ضمناً أن تُغيِّر تغييراً تاماً العقلية التركية وخاصة موقفهم من الشعوب التابعة لهم. لن يُعتبَر اليونانيون والسوريون والأرمن واليهود «كفارا قذرين» في ظل الدولة التركية الاصلاحية بعد الآن. سيكون لكل هذه الشعوب نفس الحقوق ونفس الواجبات بعد بناء النظام الجديد. تَبِعَ هذا الاعلان جوّ غريب

من المحبة ومشاهد الاهتياج الشديد حينما قبّل الأرمن والأتراك بعضهم البعض علناً إشارة إلى الاتحاد المطلق بين الشعوب المتخاصمة .

زار زعماء الأتراك ومنهم طلعت وأنور الكنائس المسيحية وأقاموا صلوات الشكر للنظام الجديد وذهبوا إلى المدافن الأرمنية لذرف الدموع الغزيرة احتراماً لشهداء الأرمن الذين دفنوا هناك . ورداً على ذلك قدم رجال الدين الأرمن إجلالهم للأتراك في الجوامع . زار أنور باشا المدارس الأرمنية العديدة قائلاً للأطفال أن أيام النزاع بين المسلمين والمسيحيين ذهبت وإلى الأبد ، وعلى الشعبين الآن أن يعيشا على المحبة . ابتسم بعض الساخرين من هذه التظاهرات ولكن تبدّل واحد شجع هؤلاء ليؤمنوا أن جنة أرضية قد فتحت لهم .

خلال مدة الاحتلال كلها كان يسمح للتركي السيد فقط أن يحمل السلاح ويخدم في الجيش العثماني . إن مهنة الجندي كانت مهنة رجولية مجيدة . شجع الأتراك الآن كل المسيحيين لحمل السلاح واشركوهم في الجيش على قدم المساواة مع الأتراك . خاض هؤلاء المسيحيون المعارك العديدة كضباط وجنود في حروب إيطاليا والبلقان ونالوا الثناءات الكبيرة من جنرالات الأتراك لبسالتهم وحذقهم .

مُثِّلَ زعماء الأرمن بشكل جلّي في حركة (تركيا الفتاة) . كان هؤلاء الرجال يؤمنون أن ايجاد دولة تركية دستورية أمر ممكن . كانوا واعين إلى تفوقهم العقلي والصناعي بالمقارنة مع الأتراك . كانوا يعلمون أيضاً أنه يمكنهم أن يغتنموا ، إذا تُركتْ الدولة العثمانية لشأنها ، بدون التدخل الخارجي ، بينما سيصطدمون بمنافسة المستعمرين الأوروبيين في حال دخولهم البلاد .

مع خلع السلطان الأحمر عبد الحميد ومع بناء النظام الدستوري الجديد شعر الأرمن الآن وللمرة الأولى خلال قرون عديدة أنهم رجال أحرار . لكن اختفت هذه

التطلعات واختفت الديمقراطية التركية كالحلم قبل مدة طويلة من الحرب الأوروبية[٥] . زالت سلطة السلطان الجديد ، وذهبت الآمال لبعث تركيا بالطرق الحديثة أيضاً أدراج الرياح ، وبقيت فقط شرذمة من الأشخاص تملك بالفعل زمام السلطة بقيادة طلعت وأنور .

بعد أن أضاع هؤلاء الرجال تطلعاتهم الديمقراطية ، أحلّوا الآن بالقوة تصوراً قومياً جديداً . بعثوا من جديد فكرة البانتوركية Panturkism بدلاً عن الدولة الديمقراطية الدستورية . قرروا بناء دولة للأتراك على وجه الحصر بدلاً من المعاملة المتساوية بين جميع الأمم العثمانية . سُميت البانتوركية بالفكرة أو التصور الجديد لكن كانت هذه رؤية ، وهدفاً جديداً لهؤلاء المسيطرين على قدر الامبراطورية . في الحقيقة كانت هذه محاولة بسيطة منهم لإحياء أفكار أسلافهم البربرية . هذا الاحياء تَـمَـثَّـلَ في الرجوع إلى صفات الأسلاف أي صفات التركي الأصيل .

حينما يتكلم الزعماء الأتراك عن الحرية والمساواة والاخاء والدستورية يشبهون الأطفال الذين يرددون الشعارات ولكنهم في الواقع يستعملون كلمة الديمقراطية كسلّمٍ ليتسلقوا بها إلى السلطة .

بقي التركي نفس الانسان الذي خرج من سهوب آسيا في القرون الوسطى بعد خمسمائة عام من الاحتكاك القريب بالحضارة الأوروبية . كان يتشبّث كأسلافه بدبق ولزوجة بفكرة استعباد وسلب وسوء معاملة الشعوب المقهورة عسكرياً . تلبَّـسَـتْ الأفكار الأساسية نفسها للسيد والعبد كلاً من طلعت وأنور وجمال رغم انهم جميعاً كانوا من عائلات متواضعة . كانت هذه المعاملة حجرة الأساس في نظام حكم السلاطين الأوائل . هكذا بقي الدستور حبراً على ورق وحتى الزيارات للكنائس والمدافن

---

(٥) الحرب العالمية الأولى ـــ (المترجم) .

بعيون دامعة لا يمكنها أن تجتث وتستأصل الشعور الفطري والموروث في هذه القبيلة البدائية بأن هناك نوعين من البشر غالب ومغلوب .

عندما ألغَتْ الحكومة التركية «وثيقة الامتيازات الأجنبية» وحررت نفسها من هيمنة القوى الأجنبية كانت تتقدم في الواقع خطوة واحدة إلى الأمام في تنفيذ فكرة البانتوركية .

أشرت سابقاً إلى الصعاب التي واجهتُها وأنا أبحث معهم عن موضوع المدارس المسيحية . إن تصميمهم على اجتثاثها هي صورة أخرى من شيمهم وميزتهم العرقية المتأخرة . حاولوا بشكل مماثل ادخال العمال الأتراك في المصالح التجارية الأجنبية ملحين ان عليهم طرد الموظفين والعمال والمختزلين اليونانيين والأرمن واليهود .

الصرب هي الدولة الوحيدة التي أخذت استقلالها بنفسها من بين كل الملكيات التي انسلخت عن حكم السلطان . دعونا نتذكر هذا كشرف أبدي لها . إن روسيا وفرنسا وبريطانيا العظمى حررت كل بقية الدول . لذلك فإن الشيء الذي حدث مرات عديدة قبلاً يمكن أن يحدث من جديد .

لا زال هناك عرق متضامن له طموحات وطاقات قومية كامنة في الامبراطورية العثمانية . في الجهة الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى وعلى حدود روسيا توجد ستة مقاطعات يشكل فيها الأرمن أكبر نسبة من السكان منذ أيام المؤرخ اليوناني هيرودوت . هذا القسم من آسيا يحمل اسم أرمينيا . الأرمن الآن هم السلالة المتعاقبة مباشرة لأناس سكنوا البلاد منذ ثلاثة آلاف سنة وأكثر . أصلهم قديم موغل في القدم ولذلك يضيع تاريخهم في خرافات وفي ألغاز عديدة . لا زالت الكتابات المسمارية حتى الآن غير مقروءة على التلال الصخرية في وان أكبر المدن الأرمنية[٦] . يتفق علماء السلالات ــ مع العلم انهم ليسوا عديدين ــ أن هناك تطابق بين العرق الأرمني وحثيي الكتاب

---

(٦) كانت عاصمة مملكة أورارتو الأرمنية قبل حوالي أربعة آلاف سنة ــ (المترجم) .

المقدس . إن الشيء الأكيد والمعروف عن الأرمن مع ذلك ، انهم كانوا على مدى عصور طويلة العرق الأكثر حضارة والأقوى صناعة في القسم الشرقي من الامبراطورية العثمانية . نزلوا من جبالهم وانتشروا في السلطنة وشكلوا العنصر الفعّال الهام بين سكان جميع المدن الكبيرة . كانوا معروفين بصناعاتهم وحياتهم المنظمة والمهذبة في كل مكان . كان مستوى ذكائهم وأخلاقهم أعلى من الأتراك ولذلك تحولت أكثر التجارة والصناعة إلى أيديهم .

يشكل الأرمن مع اليونانيين العمود الفقري للقوة الاقتصادية للامبراطورية . اعتنق الأرمن الديانة المسيحية في أوائل القرن الرابع[٧] وأسسوا كنيستهم على أساس دين الدولة . يقال أن هذه الكنيسة هي الأقدم بين الكنائس في العالم . تمسّك هؤلاء الناس بإيمانهم المسيحي بعناد كبير أمام الاضطهادات التي ليست لها مثيل في مكان آخر . عاشوا مدة ألف وخمسمائة سنة هناك في أرمينيا في جزيرة محاطة بالشعوب المتأخرة البدائية والمعادية . وجودهم المديد في المنطقة سبب لهم سلسلة طويلة من الاستشهاد .

خلال كل هذه المدة لم يعتبر الأرمن أنفسهم آسيويين بل أوروبيين . انهم يتكلمون لغة هند أوروبية وأصلهم العرقي هو آري حسب رأي العلماء . وكون دينهم هو دين أوروبا مما جعلهم دائماً يلتفتون بعيونهم نحو الغرب . كانوا يأملون دائماً أنه سيأتي اليوم الذي ستحررهم تلك الدول الغربية من أسيادهم المجرمين .

في عام ١٨٧٦ قيّم السلطان عبد الحميد حكمه فرأى أن أخطر نقطة فيه هي أرمينيا . كان يعتقد ، عن حق أو باطل ، أن هؤلاء الأرمن مثل الرومانيين والصرب يطمحون إلى إعادة بناء أمتهم المستقلة . كان يعلم أيضاً أن أوروبا وأمريكا تتعاطف مع هذه الطموحات . كانت معاهدة برلين التي أنهت الحرب التركية ــ الروسية بشكل نهائي ، تحتوي على بندٍ يعطي الدول العظمى الحق بمدّ يد الحماية للأرمن . كيف يمكن

---

(٧) سنة ٣٠١ م كأول دولة تعتنق الدين المسيحي ــ (المترجم) .

للسلطان أن يتخلص من هذا الخطر ؟ ان إدارة مستنيرة ، في رأيي ، بامكانها أن تجعل الأرمن أناساً أحراراً ، وتؤمن على حياتهم واملاكهم وحقوقهم المدنية والدينية ، وان تحولهم إلى مواطنين مسالمين ومخلصين . لكن لم يرتقِ السلطان إلى هذا المستوى من الادراك في فن إدارة شؤون الدولة . بدلاً من ذلك فكر عبد الحميد في الظاهر أن هناك طريقاً واحدة فقط لتتخلص تركيا من المسألة الأرمنية وهي تجنيبها من الأرمن . إن الافناء البدني لمليونين من الرجال والنساء والأطفال بالمذابح بتنظيم الدولة وتوجيهها ، تبدو الطريقة الوحيدة والأكيدة لتجنيب الامبراطورية من التمزق . أعطت تركيا مثلاً موضّحاً للحكم عن طريق المذابح لمدة ثلاثين سنة تقريباً . سمعنا عن هذه الحوادث في أوروبا وأمريكا عندما وصلت إلى حد البشاعة والوحشية كما حدث مثلاً بين ١٨٩٥ ــ ١٨٩٦ حينما سيق /٢٠٠/ ألف منهم تقريباً إلى الموت الشنيع . كان حياة ووجود الأرمن كابوساً مستمراً خلال كل هذه السنين . أموالهم سُرقت ، رجالهم قتلوا ، نساؤهم اغتصبن ، بناتهم اختطفن وأجبرن على العيش في الحرملك التركي . لم يقدر عبد الحميد مع ذلك أن ينجز كل ما كان يخطط ، ولو كان بوسعه لذبح الأمة الأرمنية بالكامل في طقس عربيد واحد . حاول أن يبيد الأرمن بين ١٨٩٥ ــ ١٨٩٦ لكن صادفت خططه بعض العوائق غير المُـذَللّة . كان العائق الرئيسي الدول العظمى ....

هذه الفظاعات أرجعت غلادستون ــ وكان في السادسة والثمانين من عمره ــ من تقاعده واتهم في خطاباته العديدة السلطان أنه « المجرم الأكبر »[٨] وأثار أمام العالم كل الجرائم المنكرة التي تحدث . بدا لوهلة أنه ما لم يكفّ السلطان عن أفعاله فإن إنكلترا وفرنسا وروسيا سوف تتدخل . كان السلطان يعلم جيداً أنه في حال حدوث التدخل

---

(٨) بعض أساتذة التاريخ العرب يحاولون أن يتستروا أو يتجاهلون الحقيقة الأساسية انه سُمح ببناء (٢٣) مستوطنة يهودية في فلسطين أيام حكمه وحكم الاتحاد والترقي بين ١٨٨٢ ــ ١٩١٣ . والكلام الذي قاله السلطان عبد الحميد لتيودور هرتزل أنه لن يتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين كان ستاراً فقط . أقدم لكم لاحقاً جدولاً كاملاً للمستعمرات ــ (المترجم) .

جدول بالمستعمرات اليهودية التي أقيمت في فلسطين
في فترة حكم السلطان عبد الحميد والاتحاديين

اللواء	القضاء	اسم المستعمرات	تاريخ انشهائها	عدد اليهود المؤسسين
	صفد	روشبينا	١٨٨٢	٣٤٠
الجليل		يسود همعلة	١٨٨٣	٢٥٠
		مشمار هايردن	١٨٩٠	١٣٠
		المطلة	١٨٩٦	٢٢٠
		كفر جلعادي	١٩١٦	٨٥٠
		إيلت هاشعرة	١٩١٨	٥٢٠
	الناصرة	كفر طابور	١٩٠١	٢٣٠
		مرحافيا	١٩١١	٥٩٠
		يفتيل	١٩٠١	٣٧٥
		منحاميا	١٩٠٢	٢٣٠
		سجرة	١٩٠٢	٢٦٠
		بيت غن	١٩٠٤	١٧٠
		كيوث	١٩٠٨	٢٢٠
		متصبة	١٩٠٨	٩٠
		دجانيا	١٩٠٩	٢٩٠
		مجموعة كرت	١٩٠٩	٤٦٠
حيفا	حيفا	زخرون يعقوب	١٨٨٢	١٥١٠
		باب سلومو	١٨٨٩	٩٠
		الحضيرة	١٨٩٠	٧٥٠٠
		عتليت	١٩٠٣	١٦٠
		كركور	١٩١٣	٩٠٠
		غن شموئيل	١٩١٣	٣١٠

فإن الباقي من الأرض التركية ستتقطّع وتختفي من الوجود . لذلك تخلّى عبد الحميد مؤقتاً عن مغامراته الشيطانية لتدمير عرق بأكمله عن طريق القتل . استمرت أرمينيا مع ذلك تتحمل سكرات الموت البطيء بسبب الاستمرار في الاضطهادات الوحشية . لم يمضِ بعدها يوم واحد في الولايات الأرمنية بدون اعتداءات وقتل .

إن نظام (تركيا الفتاة) رغم وعوده بالأخوّة العالمية لم يعطِ الأرمن مهلة راحة. بعد أشهر قليلة من «حفلات المحبة» التي وصفتها سابقاً جرت مذبحة من أشد المذابح هولاً في مدينة أضنة Adana حيث قتل /٣٥/ ألف أرمني.

تبنّى الأتراك الشباب الآن كثيراً من أفكار عبد الحميد وجعلوا من المسألة الأرمنية سياسة خاصة بهم. إن شغفهم وولعهم لتتريك الأمة كان لا بد أن يكون منطقياً بإبادة اليونانيين والسوريين والأرمن. كانوا معجبين بالقادة الأتراك في القرن الخامس والسادس عشر ولكنهم آمنوا بغباوة أن أولئك المحاربين العظام أخطأوا خطأً مميتاً لعدم إبادة السكان المسيحيين بشكل كامل عندما كان ذلك ضمن امكانياتهم المتاحة. هذه السياسة برأيهم كانت خطأً فظيعاً في فن إدارة شؤون الدولة. لو كان رؤساء القبائل الأتراك الذين احتلوا بلغاريا قتلوا كل البلغار بسيوفهم وأسكنوا الأتراك في تلك البلاد لما وجَدتْ المسألة البلغارية الحديثة ولا فقدت تركيا هذا القسم من امبراطوريتها[٩]. وبشكل مماثل لو كانوا قد قضوا على الرومانيين والصرب واليونان لبقيت هذه المقاطعات التي تشغلها هذه العروق أجزاء متمّمة لحكم السلطان. شعروا أن الخطأ كان كبيراً ولكن لا زال بامكانهم تخليص شيء من هذا الدمار. سينقضّون على كل اليونانيين والأرمن والسوريين وباقي المسيحيين، وينقلون عائلات تركية إلى بيوتهم ومزارعهم وبذلك يتأكدون أن هذه الأقاليم لن تسلب من تركيا بشكل مماثل. لانجاح هذا الاصلاح الكبير لا يحتاج الأمر إلّا إلى إبادة كل مسيحيّ حيّ. سيخطفون أجمل بنات الأرمن المتمتعات بالصحة التامة وسيغتصبونهن ويجبرونهن على ترك دينهن وايمانهن ولتحوّلن بعد ذلك إلى زوجات ومخطيات لرجال الأتراك. سيتّرك أطفالهن بشكل آلي لرفع قدرة الامبراطورية، كما كان الحال مع الانكشارية سابقاً. كانت المرأة الأرمنية تمثّل النموذج الأمثل للأنوثة

---

(٩) لاحظ عزيزي القارئ العربي كيف كان تفكير الأتراك عن إبادة البلغار. الكل يعرف تلال جماجم البلغار التي خلفها وراءهم الفاتحون العثمانيون المتوحشون. لكن مع كل ذلك يهجّر البلغار المواطنين الأتراك مع أمتعتهم ولوازمهم وبدون اراقة دماء. فأين هذا مع تهجير الأتراك لمواطنيهم في الصفحات القادمة للكتاب ــ (المترجم).

والأتراك بطبعهم وحدسهم الفج لاحظوا أن مزج دمهم بدم السكان الأرمن سيؤدي إلى تحسين نسل الجميع. ثم سيرسل الصبية إلى العائلات التركية ويربون هناك في جهالة عن حقيقة أصلهم. كانت هذه هي العناصر تقريباً التي قدمت اسهامات قيمّة لتركيا الحديثة التي يخطط لها الأتراك. يجب أخذ الحيطة أيضاً من نشوء جيل أرمني جديد، لذلك فمن الضروري قتل كل الرجال الذين هم في ريعان شبابهم بدون رحمة ولا تحفظ. إن النساء والرجال المسنين لا يشكلون خطراً كبيراً لتركيا المستقبل لأنهم أتمّوا بالفعل عملهم الطبيعي وذلك بترك ذرية لهم. لكنهم مزعجون ولذلك يجب التخلص منهم.

وجد الأتراك الشباب Jeunes Turcs بخلاف عبد الحميد أنفسهم في وضع مناسب يمكنهم أن يستمروا بهذه المغامرة الطائشة. وقفت بريطانيا وروسيا وفرنسا على درب سلفهم عبد الحميد لكن أزيلت هذه العوائق الآن. ظنوا ــ كما قلت سابقاً ــ انهم انتصروا على هذه الأمم ولذلك لن تتدخل في أمورهم الداخلية من الآن فصاعداً. كانت هناك قوة واحدة فقط يمكنها أن تعترض بنجاح... ألمانيا.

في عام ١٨٩٨ عندما كانت أوروبا كلها تقرع ناقوس الخطر ضد الأتراك بعد اتهامات غلادستون ويطلبون التدخل، ذهب القيصر «وهلم» إلى القسطنطينية وزار عبد الحميد وشبك أرفع الأوسمة على صدر الطاغية الدموي وقبّله على وجنتيه. إن القيصر الذي فعل هذا في عام ١٨٩٨ كان لا يزال جالساً على العرش عام ١٩١٥ وهو الآن حليف تركيا. هكذا وللمرة الأولى خلال قرنين من الزمن بقي السكان المسيحيون الآن تحت رحمة الأتراك تماماً.

أخيراً جاء الوقت المناسب لجعل تركيا بلاد الأتراك على وجه الحصر.

الفصـــل الثـانـي

«الثورة» في مدينة وان VAN

تقع مقاطعة وان التركية في الزاوية الشمالية الشرقية النائية من آسيا الصغرى. تحاذي الحدود الفارسية من الشرق وتقابل القفقاس في حدودها الشمالية. إنها من أجمل أقسام الامبراطورية العثمانية وأخصبها، ولها ارتباطات تاريخية غنية جداً. مدينة وان هي عاصمة الولاية وتقع على الشاطئ الشرقي من بحيرة وان، وهي إحدى مدن آسيا الصغرى التي يربو فيها عدد سكان الأرمن عن الأتراك. في خريف عام ١٩١٤ كان عدد سكانها /٣٠/ ألفاً تقريباً وكانت من أهدأ وأغنى وأسعد المجتمعات المزدهرة في الامبراطورية العثمانية، مع العلم أن وان ــ كما هو الحال في كل منطقة يعيش فيها الأرمن ــ كانت فيها فترات من الاضطهاد والمذابح لكن النير التركي هنا كان أخف نسبياً. كان تحسين باشا ــ حاكم المقاطعة التركي ــ من نوع الضباط الأتراك المثقفين المستنيرين. كانت

العلاقات بين الأرمن الذين يعيشون في القسم الأغنى من المدينة والأتراك والأكراد الذين يشغلون الأكواخ الطينية في القسم الآخر ، كانت مقبولة ومحمولة لسنوات عديدة .

أصبحت هذه الولاية بشكل حتمي مسرحاً للعمليات العسكرية بسبب موقعها الجغرافي وأضحت نشاطات السكان الأرمن موضعاً للشك اليومي . إذا حاولت روسيا غزو تركيا فإن أسهل طرق العبور تمرُّ من خلال هذه المقاطعة . بدأت بعض الظواهر تسبب القلاقل، مع العلم أن الحرب كانت في بدايتها . مثلاً : إن الثقل الأكبر لمصادرات المؤن في وان ، بسبب حاجة الجيش إليها ، وقع بشكل أكبر على السكان المسيحيين والأرمن . حصل الشيء نفسه أيضاً في كل المناطق التركية الأخرى . كان على الأرمن أن يقفوا جانباً بهدوء بينما يستولي الضباط الأتراك على كل قطعانهم وخيولهم وكل شيء نافع لهم ويعطونهم بالمقابل قصاصات من الورق فقط التي ليست لها قيمة مادية . الشيء الثاني الذي سبب القلاقل في وان هو محاولة التجريد العام للسلاح الذي أثار فيهم الهلع وزاد الفزع عندهم بسبب المعاملة الوحشية التي لاقاها الجنود الأرمن في القفقاس ، ومن جهة أخرى اتهم الأتراك السكان المسيحيين تهماً كثيرة . وفي حقيقة الأمر كانوا يعزون إليهم أكبر اللوم على الهزائم التي منيت بها جيوشهم وعلى معاناتهم في القفقاس .

أثار غيظ الأتراك بشدة أيضاً تلك الحقيقة وهي أن في تغيير ميزان القوى هناك يد للعناصر الأرمنية المميزة . كما أن نصف الأرمن في العالم يسكنون في المقاطعات الروسية في القفقاس وهم عرضة ككل الروس للخدمة العسكرية ، لذلك لم تكن هناك أسباب منطقية للشكوى من قبل الأتراك طالما أن هذه القوات المجندة الأرمنية هي من الرعايا المخلصين للقيصر . أكد الأتراك أن أعداداً كبيرة من الجنود الأرمن في وان وفي المقاطعات الأخرى فرّوا وعبروا الحدود وانضموا إلى الجيش الروسي ، وكان حسن معرفة هؤلاء بالطرق والتضاريس العامل المهم في انتصارات الجيش الروسي . مع عدم تأكدنا من حقيقة هذه الادعاءات فليس بعيد الاحتمال أن ذلك الفرار لعدة مئات من الجنود حصل بالفعل .

ظهر في بداية الحرب عملاء «الاتحاد والترقي» في مدينة أرزروم Erserum يناشدون زعماء الأرمن للذهاب إلى داخل أرمينيا الروسية لمحاولة البدء بثورة ضد الحكومة الروسية. في الحقيقة رفض الأرمن العثمانيون الفكرة وهذا أدى إلى مزيد من القلاقل العامة. اعتبرت الحكومة التركية هذه التصرفات لأرمن وان خيانية وكانت حجة لتصرفاتهم اللاحقة في معاملة العرق بكامله. إن موقفهم هذا بيّن مرة أخرى حماقة وعناد العقل التركي. بعد إبادة مئات الآلاف من الأرمن خلال ثلاثين سنة وانتهاك حرمات نسائهم وبناتهم ونهبهم وسوء معاملتهم في كل صورة يمكن تخيلها، فمع ذلك لا زال الأتراك يؤمنون بأن لهم الحق في مطالبة الأرمن ليكونوا شديدي الإخلاص في حماسهم.

إن تعاطف الأرمن مع الحلفاء في جميع مناطق تركيا لم يكن سراً. «إذا أرادت أن تعرف كيف تسير الحرب» كتبت جريدة تركية ساخرة «كل ما تحتاج إليه هو أن تنظر إلى وجه الأرمني»، إذا ابتسم فهذا يعني أن الحلفاء يربحون، أما إذا كان مكتئباً فمعنى ذلك أن الألمان يفوزون».

إذا فرّ الجندي الأرمني العثماني من الجيش وانضم إلى الروس فهذا يشكل، من غير شك خرقاً فنياً صارخاً ضد الدولة ويجب معاقبته، لكن العقل التركي وحده وطبقة الجنكرز[1] Junkers، بكل احتمال، يمكنهما أن يعتبرا هذا سبباً فاصلاً للأعمال البربرية التي تحصل الآن.

تصرف الأرمن بتمالك نفسي ملحوظ، رغم ان الجو كان مليئاً بهاجس المتاعب في خريف وشتاء عام ١٩١٤ــ١٩١٥. كانت السياسة التركية لسنوات عديدة هي تحريض المسيحيين على ارتكاب أعمال عدائية علنية لتكون عندهم الاعذار للقيام بالمجازر. وجد رجال الدين والزعماء السياسيين الأرمن بوادر كثيرة تشير إلى أن الأتراك عادوا إلى سياستهم القديمة ولذلك ذهبوا إلى رعيتهم ينبّهونهم بأن يحافظوا على الهدوء وأن

---

(١) الفرسان الاقطاعيين الألمان في القرون الوسطى ــ (المترجم).

يتحملوا كل الاهانات وحتى الاعتداءات بالصبر حتى لا يعطوا الأتراك الحجة التي كانوا يفتشون عنها. «حتى إذا أحرقوا بعض قرانا» كان يقول هؤلاء الزعماء «لا تثأروا لأن قتل بعض منا أفضل من تدمير الأمة».

عندما بدأت الحرب استدعت الحكومة المركزية تحسين باشا حاكم وان وعينت جودت بيك صهر أنور باشا بدلاً عنه. هذا التصرف في الحقيقة ولّد جواً من عدم الرضى والانزعاج لدى الأرمن. كان هناك دائماً في «المؤسسة العسكرية التركية» ضباط لا يؤمنون بسياسة المجازر. لذلك لم تعتمد الحكومة المركزية عليهم لتنفيذ الأوامر الصارمة والدموية. كانت طباع خليفة تحسين باشا أكثر إثارة للمخاوف بعد استلام منصبه. قضى جودت بيك أكثر حياته في وان. كان رجلاً غير متوازن الطباع. فهو صديق لغير المسلمين تارة وعدوهم تارة أخرى. ريائي وخياني ومتوحش الطباع حسب أردأ نواميس عِرْقِه. كان يكره الأرمن ويتعاطف بحرارة مع الخطة المُنجزة من زمان بعيد لحل القضية الأرمنية. ليس هناك شك أنه جاء إلى وان بتعليمات واضحة لإبادة الأرمن في هذه المقاطعة. لكن لم تسمح ظروفه في الشهور القليلة الأولى لتنفيذ هذه العمليات، لأنه كان غائباً عن وان يحارب الروس في القفقاس. عند اقتراب العدو رأى جودت أن السياسة الحكيمة تتطلب أن يُمسِكَ عن سوء معاملة أرمن مدينة وان. يُعتبر بشكل عام ملاحقة الجيش المنسحب من قبل الجيش المنتصر تكتيكاً حربياً جيداً، لكن انسحاب الروس كان انسحاباً سعيداً برأي الجنرالات الأتراك لسبب رئيسي هو أن الأرمن جُرّدوا من حمايتهم وتُركوا تحت رحمة الجيش التركي. فبدلاً من أن يلحق الجيش التركي عدوه المنسحب، التفت إلى الداخل وغزا أرضه في وان، وبدلاً من أن يحارب الجيش الروسي المدرب وجّه أسلحته ورشاشاته الأوتوماتيكية وأسلحة أخرى على النساء والأطفال والشيوخ الأرمن. بعدئذ أتبع الجنود عادتهم القديمة بأن وزّعوا أجمل النساء الأرمنيات على المسلمين ونهبوا وحرقوا القرى الأرمنية وقاموا بالمذابح لعدة أيام بدون توقف. في ١٥ نيسان تجمع حوالي /٥٠٠/ من شباب الأرمن لسماع أوامر السلطان.

عند الغروب ساروا على الأقدام خارج المدينة وقُتل كل واحد منهم بالرصاص بشكل وحشي. كُررت هذه الاجراءات في حوالي ثمانين قرية أرمنية، وخلال ثلاثة أيام قُتل حوالي /٢٤/ ألف من الأرمن بهذا الشكل المروّع. سأسرد حادثة واحدة تبين بوضوح فساد وفسق الطبيعة التركية. جرت مشادة في قرية شاداك الأرمنية بين الأرمن والأتراك. طلب جودت بيك الذي وصل تواً إلى وان من أربعة زعماء أرمن أن يذهبوا إلى شاداك ويحاولوا تهدئة الحشد. قام هؤلاء الرجال بالرحلة وعلى طريقهم وقفوا عند كل قرية أرمنية يحثّون الجميع على حفظ الهدوء العام. بعد أن أتمّ هؤلاء الأربعة مهمتهم قتلوا في قرية كردية.

عندما عاد جودت بك إلى قيادة الموقع، طلب من وان أن تزوّده بأربعة آلاف عسكري. من الطبيعي لم يكن الأرمن في نفسية تسمح للموافقة على طلبه. عندما يفكر الانسان ملياً ماذا حصل قبلاً وماذا يمكن أن يحصل فيما بعد، تبقى في نفسه ثقة قليلة جداً بالهدف المستتر تحت هذا الطلب.

جودت الذي يعمل بأوامر من القسطنطينية كان مستعداً لمحو جميع السكان الأرمن. كان هدفه من استدعاء أربعة آلاف رجل أصحاء البدن هو إبادتهم ولكي لا يبقى لباقي الأرمن من يحميهم. اقترح الأرمن بعد مفاوضات طويلة لكسب الوقت تجهيز /٥٠٠/ عسكري ودفع البدل للباقي. لكن جودت بدأ الآن يتكلم بصوت عال عن «الثورة» وعن عزمه لتحطيمها بأي ثمن «إذا أطلق المتمردون طلقة واحدة» أعلن جودت «سأقتل كل رجال ونساء المسيحيين» ومشيراً إلى ركبتيه «وكل طفل إلى هنا». كان الأتراك يبنون الخنادق والاستحكامات حول المنطقة الأرمنية لمدة غير قليلة ويملأونها بالجنود. ورداً على هذا الاستفزاز بدأ الأرمن بالاستعداد للدفاع عن أنفسهم واشتعلت الشرارة في ٢٠ نيسان حينما اعتقلت زمرة من الجنود الأتراك عدة نساء أرمنيات، كن يدخلن المدينة. ركض عدد من الأرمن لمساعدتهن ولكنهم قتلوا بالرصاص. بعدها فتح

الأتراك النار على الأحياء الأرمنية بالأسلحة والمدفعية، واشتعلت المدينة بسرعة وبدأ الحصار المنظم.

كانت القوة الأرمنية المقاتلة كلها تتألف من /١٥٠٠/ رجل فقط. كان عندهم /٣٠٠/ بندقية وذخيرة غير كافية بينما كان لدى جودت بيك جيش مدرب من /٥٠٠٠/ رجل مجهزين ومزودين بشكل كامل. حارب الأرمن مع ذلك بشجاعة وخبرة أكبر. كانت امكانياتهم لصد اعدائهم طويلاً بسيطة. كانوا يعلمون أن جيشاً روسياً يتقدم إلى وان وانّ أكبر أمل لهم في النجاة أن يرصّوا صفوفهم ويتّحدوا ويصمدوا ضد المطوقين ريثما يأتي هؤلاء الروس. بما أنني لا أكتب قصة حصار أو معارك لذلك لا أقدر أن أصف العديد من الأعمال البطولية الفردية والتعاون والتآزر بين النساء الأرمنيات وعن حماسة وشجاعة الفتيان والتضحيات من البعثات التبشيرية الأمريكية وخاصة الدكتور أشر Usher وزوجته والآنسة كريس كناب Grace Knapp وعن آلاف المناسبات التي جعلت من هذا الشهر الفظيع أكثر الصفحات المجيدة في تاريخ الأرمن الحديث. الشيء الرائع في هذا هو أن الأرمن انتصروا. بعد خمسة أسابيع من القتال بدون نوم ولا راحة ظهر الجيش الروسي فجأة وهرب الأتراك إلى المناطق المجاورة. قام الأتراك بمزيد من المجازر في القرى الأرمنية المسالمة انتقاماً لهزيمتهم وتهدئة لغضبهم. دمّر مشفى الدكتور آشر طبيب البعثة التبشيرية الأمريكية في هذه الحوادث بالمدفعية التركية. الدكتور آشر هو شاهد العيان للرواية التي تقول أنه بعد طرد الأتراك بدأ الروس بجمع وحرق جثث الأرمن الذين قتلوا في المنطقة. كان عدد المحروقين /٥٥/ ألفاً.

إنني أروي قصة «الثورة» في وان ليست فقط لأنها كانت المرحلة الأولى والمحاولة المنظمة لضرب أمة بأكملها، بل لأن الأتراك جاؤوا بذكر هذه الحوادث دائماً لتبرير جرائمهم اللاحقة. حينما لجأت واحتكمت إلى أنور وطلعت وباقي الزعماء من أجل التخفيف عن آلام الأرمن، ضربوا لي دائماً مثلاً ثابتاً عن «الثوار» في وان كنموذج لخيانة الأرمن. هذه «الثورة» الشهيرة التي يتهم بها الأرمن تُرينا عزم الأرمن على حماية أرواحهم

وشرف نسائهم بعد أن أباد الأتراك الآلاف من جيرانهم وتنبّهوا إلى المصير المحتوم الذي ينتظرهم .

الفصـــل الثالـــث

قتـــل أمـــة

كانت هناك بعض المصاعب لتنفيذ المذابح الأرمنية عام ١٩١٥ . لم تكن هناك معوّقات كبيرة لعملية الإبادة التركية في عام (١٨٩٥ــ١٨٩٦) والأعوام الأخرى الطويلة التي سبقتها . لم يملك الأرمن سوى وسائل بسيطة للدفاع عن النفس . فلم يكن مسموحاً للأرمن، في تلك الأيام، بالتدريب على الأسلحة والخدمة في الجيش التركي أو حتى امتلاك الأسلحة . ألغي هذا التمييز حينما أصبحت السلطة في يد الثوار الأتراك عام ١٩٠٨ . لم يُسمح للمسيحيين بحمل السلاح فحسب بل شجعتهم السلطات على ذلك في شدة حماسهم المتدفق بشعارات الحرية والاخاء والمساواة . كان في كل مدينة تركية في أوائل عام ١٩١٥ آلاف الأرمن مدربين كجنود، مجهزين بالبنادق والمسدسات وأسلحة دفاعية أخرى . إن العمليات العسكرية في وان كشفت للعيان مرة أخرى بأن هؤلاء الرجال بإمكانهم استعمال الأسلحة لصالحهم بشكل جيد . كان واضحاً أن

المذابح الأرمنية في هذا الوقت ستأخذ شكل الحرب الأهلية بالمقارنة مع الذبح الجماعي من قبل الأتراك لرجال ونساء كانوا في الماضي بدون حماية . لذلك ولإنجاح خطة إبادة هذا العرق يجب إتباع مرحلتين تمهيديتين . ففي المرحلة الأولى من الضروري جعل كل الجنود الأرمن في حالة عجز تام ، وفي المرحلة الثانية يجب تجريد كل الأرمن من أسلحتهم في كل مدينة كبيرة أو صغيرة . قبل ذبح أرمينيا يجب أن تبقى بدون حماية .

في أوائل عام ١٩١٥ حُوِّلَ الجنود الأرمن في الجيش التركي إلى وضعية جديدة . جُرِّدوا جميعاً من أسلحتهم وجمعوا في طوابير عمل بالسخرة بدلاً من أن يخدموا بلدهم كمشاة أو مدفعيين . اكتشف هؤلاء الجنود السابقون بعد قليل أنهم حوّلوا إلى عمال طرق وحيوانات لحمل الأثقال . كانت لوازم الجيش من كل الأنواع تحمّل على ظهورهم . كانوا يجرّون أجسامهم المتعبة تحت ضرب السياط والحراب يتعثرون في مشيتهم في جبال القفقاس .

كان عليهم في بعض الأحيان أن يحرثوا طريقهم في ثلوج القفقاس الكثيرة . كانوا عملياً يمضون كل وقتهم في العراء وينامون على الأرض الجرداء . حينما كان المراقب يكّف عن الحث المتواصل للعمل ، يعطيهم فرصة قليلة للنوم وفتات من الخبز اليابس فقط . وحينما يمرضون ، كانوا يُتركون في المكان الذي يقعون فيه ، ويقف المضطهدون الأتراك مدة كافية لسرقة كل ما في حوزتهم وحتى ثيابهم . فإذا نجح هؤلاء المشردون ، بعد كل هذا في الوصول إلى الأمكنة المقصودة لم يكن من النادر أن يُقتلوا . كانوا يتخلصون من الجنود الأرمن من غير إبطاء . كانت العادة أن يطلقوا النار عليهم بكل وحشية وكانت هذه العمليات تعاد في كل مكان .

شرذمة من الرجال مؤلفة من /٥٠ ــ ١٠٠/ رجل كانوا يُحجزون ويُربط بعضهم إلى بعض في جماعات مؤلفة من أربعة جنود ، ويُسيّرون على الأقدام خارج المدينة أو القرية . وفجأة في نقطة منعزلة وعلى مسافة غير بعيدة من القرية يمتلىء الجو بصوت طلقات البنادق . بعد ذلك وجد أولئك الذين أرسلوا لدفن الجثث ، وجدوها عارية تماماً

المجندون الأرمن في الجيش العثماني

ميساك طورلاكيان
من أعضاء « كوماندوس العدالة والثأر » قتل في استنبول في ١٩ حزيران ١٩٢١ بهبوت خان جيغانشاهير عاصمة سفاح أرمن باكو (أذربيجان السوفييتية) .

لأن الأتراك كالعادة سرقوا ثيابهم. إنه من الظواهر التي لفتت انتباهي، إن المجرمين أضافوا تفنّناً جديداً إلى شقاء ضحاياهم، وهو إكراههم على حفر قبورهم قبل اطلاق الرصاص عليهم.

دعوني أقص عليكم حادثة جاءت في أحد تقارير قناصلنا وهذا التقرير يقبع الآن في مستندات الادارة الامريكية. أُرسل في أوائل شهر تموز /٢٠٠٠/ من عمال السخرة من مدينة خاربوت لبناء الطرق. أدرك الأرمن في تلك المدينة معنى هذا التصرف وناشدوا الرحمة من الحاكم. أكد هذا المسؤول أن الرجال لن يمسّوا بسوء، حتى أنه استدعى المبشّر الألماني السيد ايهمان Ehmann لتهدئة الذعر. أعطى الحاكم كلمة الشرف لهذا السيد علي أن هؤلاء المجندين سيكونون تحت الحماية. صَدَّق السيد ايهمان كلام الحاكم وهدّأ من روع الشعب. لكن مع كل ذلك قتل كل واحد منهم ورموا بجثثهم في مغارة. هرب بعضهم وعن طريقهم وصلت أخبار المجازر إلى العالم. بعد أيام قليلة أرسل /٢٠٠٠/ آخرون إلى ديار بكر. هؤلاء المخلوقات المسكينة كانوا يجوَّعون بشكل منتظم حتى لا يقووا على المقاومة أو الفرار.

كان عملاء الدولة في العادة يسبقون القافلة ويخبرون الأكراد أن قافلة من الأرمن تقترب ويأمرونهم أن يعملوا واجبهم الملائم. لم يتدفق القبليون المتوحشون من جبالهم على هذا الحشد الجائع الضعيف من الناس فقط، بل النساء الكرديات جئن بسكاكين الجزارين الكبيرة لكي يكسبوا ثواباً من عند الله وذلك بقتل مسيحيّ. هذه الإبادات لم تكن حوادث فردية منعزلة. يمكنني أن أسرد عليكم بالتفصيل سلسلة أخرى من الأحداث الكثيرة والفظيعة. جرت محاولة منظمة من قبل الدولة التركية لقتل كل الرجال المسيحيين الأصحاء في كل أنحاء الامبراطورية العثمانية. لم تكن الغاية إزالة كل الرجال الذين بإمكانهم إنجاب سلالة جديدة من الأرمن فحسب، بل ترك القسم الأضعف من السكان فريسة سهلة أمامهم أيضاً.

كانت مذابح الجنود العزّل مروعة جداً، ومع ذلك كان وضع هؤلاء أرحم وأهون

امرأتان أرمنيتان مهجّرتان في جرابلس عام ١٩١٥

(مصور ألماني)

النساء والأطفال والشيوخ القتلى في دير الزور ١٩١٦

شراً بالمقارنة مع المعاملة التي لاقاها أولئك الذين كان يشك بأنهم يخفون الأسلحة . من الطبيعي أن المسيحيين ارتعدوا حينما وُضِعَتْ اعلانات في القرى والمدن تأمر الجميع باحضار أسلحتهم إلى قيادة الجيش . فطن الأرمن للنتيجة جيداً وشعروا أنهم سيُتْرَكون بدون حماية بينما سيسمح لجيرانهم الأتراك والأكراد بالاحتفاظ بأسلحتهم . أطاع هؤلاء المضطهدون الأمر مع كل ذلك في حالات كثيرة وانتشل الضباط الأتراك البنادق والأسلحة الأخرى كدليل لـ « الثورة » ورموا بضحاياهم في غياهب السجون بتهمة الخيانة ، فشل الكثير منهم بتسليم أسلحة لسبب بسيط وهو أنه لم يبق لديهم ما يقدمونه . لكن العدد الأكبر رفض بتشبث اعطائهم الأسلحة لا لأنهم يدبرون ثورة بل كانوا يعتزمون الدفاع عن أرواحهم وعن شرف نسائهم ضد الانتهاكات التي كانت تخطط .

إن طرق معاقبة هؤلاء « المتمردين » تشكل صفحة من الصفحات الشنيعة والمخزية للتاريخ البشري الحديث . يؤمن أكثرنا أن التعذيب ليس الطريق المثلى للوصول إلى الحقيقة . لا أؤمن أنه جرت مشاهد أفظع مما حدث في كل أنحاء تركيا في أحلك العصور البشرية . لم يكن هناك مقدّسات عند الدركي التركي . نهبوا الكنائس وتعاملوا مع الأواني المقدسة للمذبح بإهانة كبيرة ، بحجة التفتيش عن السلاح . حتى أنهم أقاموا شعائر دينية استهزائية . كانوا يضربون رجال الدين المسيحيين لدرجة فقدان الوعي بحجة أن كنائسهم أوكار عصيان ومخابئ للأسلحة . عند عجزهم في العثور على الأسلحة كانوا يسلّحون المطارنة والقسس أحياناً بالسيوف أو المسدسات ثم يحاكمونهم أمام المحاكم العسكرية لحيازتهم على الأسلحة الممنوعة قانوناً ، ويسيرون معهم في الشوارع لاشعال حنق وغيظ الغوغاء المتعصبين . عامَلَ الشرطة النساء كالرجال بالقسوة والفظاظة نفسها . هناك مستندات تشير إلى أن النساء أيضاً اتهمن بحيازة الأسلحة . لذلك كنّ يعرّون من ثيابهن كاملة ويضربن ضرباً مبرحاً بسياط من أغصان الأشجار الخضراء . هذه الممارسات نُفِّذَتْ أيضاً على النساء الحوامل . هذه الانتهاكات وهذا التفتيش

كان يتكرر كثيراً حتى أن البنات والنساء الأرمنيات كنّ يهربن إلى الغابات والتلال ومغاور الجبال حينما يقترب الدرك .

كان يقبض على الرجال الأقوياء في القرى والمدن ويوضعون في السجن كخطوة أولية تحضيرية لبدء التفتيش في كل مكان . كان المعذّبون يقومون بتنفيذ أشد الابداعات الشيطانية في محاولتهم للضغط على ضحاياهم ليعلنوا أنهم « ثوريون » ويخبروهم عن مخابئ أسلحتهم . إن الممارسة الشائعة للتعذيب كانت بوضع السجين في غرفة ممدداً على ظهره ، ويقف تركيان أمام بعضهما وجهاً لوجه بجانب رجلي السجين ويبدآن الضرب بالعصا الرفيعة على أخمص القدمين . ليس هذا النوع من التعذيب غريباً في الشرق . لا يكون الألم ملحوظاً في البداية ولكن حينما تستمر هذه العملية تسبب أوجاعاً يذوق فيها هذا المسكين سكرات الموت . يبدأ جِلْدُ رجله بالاحتقان الشديد وينفجر بعدها وتصل الحالة إلى حد البتر أحياناً . كان الدرك يضربون ضحاياهم حتى الاغماء ثم يرشقون الماء على وجوههم ويعودون بعدها إلى وعيهم ومن ثمّ يبدأ الضرب من جديد . كانت عندهم طرق كثيرة أخرى للاقناع إذا لم ينجحوا في الوصول إلى حل مع ضحيتهم . كانوا يقلعون الرموش وشعرات الذقن شعرة فشعرة . كانوا ينزعون أظافر الأيدي والأرجل ويضعون الحديد المحمي على صدورهم ويقطعون من لحم ضحاياهم بكلّابات محمية وبعدها يضعون الزيت المغلي على جروح ضحاياهم . في بعض الأحيان ثبّت الجنود أرجل وأيدي المساجين على الخشب تقليداً لصلب المسيح وبينما يتلّوى المعذبون بسكرات الموت كان الجنود يصيحون « ليأت الآن مسيحك لانقاذك » .

هذه الأعمال البربرية وأعمال أخرى أمتنع عن وصفها كان تنفّذ في الليل . كان الأتراك يتمركزون حول السجون ويقرعون الطبول ويصفّرون عالياً حتى لا تصل صرخات وأنين ضحاياهم إلى القرى المجاورة .

تحمل الأرمن كل هذه الوحشيات آلاف المرات ورفضوا تسليم أسلحتهم لأنه في الواقع لم يبق لديهم ما يعطون . كانت العادة أن الأرمن حينما يسمعون باقتراب المفتشين

كانوا يشترون الأسلحة من جيرانهم الأتراك لإعطائها إلى السلطات ليتخلصوا من هذه العقوبات .

كنت أتباحث في يوم من الأيام مع مسؤول تركي كبير عن هذه الأحداث . لم يخف عني الحقيقة وهي أن الحكومة هي التي حرّضت على هذه الأعمال وأتراك الطبقة الحاكمة كلها توافق بحماس على هذه المعاملة ضد هذا العرق . قال هذا المسؤول بأن كل هذه التفاصيل كانت تبحث مساء كل يوم في قيادة الاتحاد والترقي . كل طريقة جديدة للتعذيب كانت ترّحب كاكتشاف باهر وكان هؤلاء الجلادون ينقّبون في ثنايا عقولهم لاختراع طريقة جديدة للتعذيب . قال لي مرة هذا المسؤول أنهم غاصوا في سجلات محكمة التفتيش الاسبانية وفي كل الاعراف التاريخية لفّن التعذيب وتبنوا تقريباً كل الاقتراحات التي وجدت هناك . لم يخبرني هذا المسؤول الكبير عمّن ربح جائزة هذه المسابقة الشنيعة ، لكن الشائعات الكبيرة على امتداد أرمينيا أعطت الاسم المخزي لجودت بيك والي وان . في طول البلاد وعرضها كان جودت بيك يعرف بـ « النعّال » لأن هذا الخبير في التعذيب اخترع ــ ربما كأحسن تحفة بين الكل ــ فكرة دق نعال الأحصنة على قدمي ضحايا الأرمن .

هذه الأحداث مع ذلك لم تكن بالأهمية بالمقارنة مع « الفظائع الأرمنية » التي كانت تكتب عنها الصحف التركية . هذه الجرائد بتحريضها الغوغاء المتعصب والجاهل كانت تمهّد بخطوات أولية لدمار هذا العرق . أظهر « الأتراك الشباب » براعة أكبر من سلفهم عبد الحميد . كانت أوامر السلطان المخلوع « القتل ... القتل » بينما « الديمقراطية التركية » كشفت عن خطة جديدة كلياً . فبدلاً من الإبادة المباشرة للعرق الأرمني دفعة واحدة ، قرروا الآن أن ينفوه . في الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية من الامبراطورية العثمانية تقع الصحراء السورية ووادي ما بين النهرين . مع أن هذه المنطقة كانت يوماً مزدهرة حضارياً لكنها عانت في القرون الخمسة الأخيرة البؤس والفقر الذين هما قدر كل أمة كانت خاضعة للحكم التركي . هذه المنطقة الآن مقفرة مهجورة وموحشة بدون أية

ملامح للمدنية أو الحياة من أي نوع كانت تسكنها بعض القبائل المتأخرة. إن الجهد الصناعي الكبير والدؤوب والرفيع فقط، وعلى امتداد سنوات طويلة، يمكنه أن يحوّل هذه الصحراء إلى مناطق سكانية آهلة. أعلنت الحكومة المركزية الآن عن نيّتها لجمع مليونين أو أكثر من الأرمن الذين يعيشون في مناطق عديدة من الامبراطورية وأبعادهم إلى هذه المناطق القاحلة وغير المضيافة[1]. وللحقيقة نقول: لم تكن في نية الأتراك أبداً إعادة السكان الأرمن إلى بيوتهم مستقبلاً. كانوا يعلمون أن أكثرهم لن يصل إلى المكان المقصود. إن الذين لم يموتوا بسبب العطش والجوع سيقتلون من قبل قبائل الصحراء المتوحشة. كانت الفكرة الرئيسية للترحيل الدمار ثم النهب. عندما أعطت السلطات التركية أوامر الترحيل هذه، كانوا في الحقيقة يعطون مذكرة الموت لعِرق بأكمله. تفهموا هذا جيداً وفي أحاديثهم لم يحاولوا بأي شكل أن يخفوا عني هذه الحقيقة.

استمر الترحيل طوال ربيع وصيف عام ١٩١٥. أعفيت من الترحيل المدن الكبرى كالقسطنطينية وسميرنا وحلب. وكل الأمكنة التي كانت تعيش فيها ولو عائلة أرمنية واحدة أصبحت الآن مسرحاً لهذه المآسي التي لا توصف. نادراً ما أعفي أرمني من الأمر بغض النظر عن درجة ثقافته أو غناه أو انتمائه الطبقي. كانوا يضعون الاعلانات في بعض القرى تأمر السكان الأرمن أن يحضروا إلى مكان عام في ساعة معينة ويكون الموعد عادة بعد يوم أو يومين. وفي المدن الصغيرة، كان المنادي يقرأ الأوامر في الشوارع شفهياً. وفي مناطق أخرى حتى لم يُنذروا. كان الدرك يظهرون أمام البيوت الأرمنية ويأمرون كل السكان بالخروج. كانوا يأخذون النساء المنشغلات بمهام البيت بدون أن يسمحوا لهن حتى فرصة بسيطة لتغيير ثيابهن. يهجم عليهن الشرطة كانفجار بركان فيزوف على مدينة بومباي. أخذوا النساء من أحواض الحمامات واختُطِفَ الأطفال من أسرهم وترك الخبز غير ناضج في الفرن المشعول، وبقي غذاؤهم على الطاولات نصف مأكول وهُجِّر الأطفال وكتبهم المدرسية مفتوحة وأجبر الرجال بالقوة

---

(١) دليل واضح على موقف العرب المسلمين من اللاجئين الأرمن (على الصفحة التالية) ـــ (المترجم).

على هجر محراثهم في الحقول ومواشيهم على سفح التلال، حتى النساء اللاتي ولدن أطفالاً أجبرن على الانضمام إلى الحشد المذعور وبين أيديهن ينام أطفالهن. إن كل ما قدرن على حمله في هذه العجالة من الأشياء المنزلية هو شال أو حرام أو ربما مؤنة الطريق من الطعام. على أسئلتهن المسعورة «إلى أين نحن ذاهبون»، كان الدرك يمنحونهم جواباً واحداً فقط «إلى الداخل».

كان اللاجئون في بعض الأحيان يُعْطَوْنَ بضع ساعات وفي أوقات استثنائية بضعة أيام لترتيب شؤون أملاكهم وبيوتهم. كان هدف هذه الممارسات السرقة أيضاً. كان على الأرمن أن يبيعوا للأتراك فقط وبما أن الشارين والبائعين يعرفون أن هناك يوماً واحداً أو يومين لتسويق «تحويشة العمر»، كانت الأسعار التي يحصلون عليها تشكل قسماً صغيراً من قيمتها الحقيقية. آلات الخياطة قد بيعت بدولار واحد، والبقرة بدولار واحد تقريباً، أثاث بيت كامل كان يباع بقيمة زهيدة جداً. كان يمنع على الأرمن في أحوال عديدة أن يبيعوا وللأتراك أن يشتروا حتى بهذه الأسعار المضحكة، بذريعة أن الحكومة تنوي بيع ممتلكاتهم الشخصية المنقولة ليدفعوا من ثمنها لدائنيهم، أما أثاث البيوت ستوضع في المستودعات أو تكدس في الأماكن العامة وهنا كانت تنهب من قبل رجال ونساء الأتراك. كان مسؤولو الحكومة يخبرون الأرمن بعدم بيع بيوتهم ما دام ترحيلهم سيكون مؤقتاً. لم يكن المالكون الأرمن يبتعدون قليلاً من القرية حتى تُدخل الحكومة التركية المهاجرين الأتراك من كل أنحاء تركيا إلى شقق الأرمن. كانت الأشياء الثمينة كلها مثل المال والخواتم والساعات والجواهر تؤخذ للمخافر لـ«الحفظ الأمين» بانتظار رجوعهم، ثم يوزعون هذه الأشياء على بعضهم البعض. لم تسبب هذه السرقات مع كل ذلك غير كرب بسيط لدى المهاجرين الأرمن لأنه كانت تحدث مشاهد تعذيب أفظع أمام أعينهم. فقد استمرت الإبادة الجماعية للرجال. كانت العادة المتبعة قبل بداية مسيرة القافلة فصل الرجال عن عائلاتهم وربط كل أربعة منهم ببعض ثم نقلهم إلى الضواحي لقتلهم بالرصاص. إن الشنق العلني بدون محاكمة كان ظاهرة شائعة ويحدث باستمرار. التهمة الوحيد هي أنهم أرمن. كان الدرك يبدون رغبة خاصة لإبادة المثقفين

والمتنفذين. كنت أحصل دائماً على تقارير من قناصلي والتبشيريات في تركيا عن تلك الاعدامات وعن حوادث كثيرة فظيعة وصفت من قبلهم والتي لن تخبو من ذاكرتي ما حييت.

قُبض على الرجال الأرمن في أنقرة بين سن /١٥ــ ٧٠/ وربطوا كل أربعة ببعضهم وأرسلوا باتجاه مدينة القيصرية. وبعد مسيرة خمسة أو ستة ساعات وصلوا إلى واد منعزل هاجمهم فيه غوغاء من الفلاحين الأتراك بالهراوات والمطارق والفؤوس والمناجل والمجاريف والمناشير. تلك الأدوات لم تكن تسبب الموت الفظيع بالمقارنة مع القتل بالأسلحة والمسدسات فحسب بل، كما كان يقول الأتراك أنفسهم، كانت تلك الطريقة أكثر اقتصادية لأنهم لم يضيعوا سدى البارود والأغلفة النحاسية. بهذه الطريقة أبادوا كل السكان الذكور بمن فيهم المثقفين والأغنياء في أنقرة، وتُركت أجسامهم المشوهة بشكل مفزع لتفترسها الحيوانات المتوحشة في الوادي. بعد اتمام هذا الدمار اجتمع الفلاحون والدرك في الحانة المحلية يقارنون جداولهم ببعض ويتبجحون بعدد «الكفار» الذين ذبحوهم.

وُضِعَ الرجال في الزوارق في مدينة طرابزون جنوبي البحر الأسود ولحق بهم الدرك وقتلوهم ورموا بجثثهم في البحر.

أعطيت الأوامر للقوافل بالسير وكانت مؤلفة من النساء والأطفال والشيوخ تقريباً. لم يكن نادراً قبل أن تتحرك القافلة أن يتمنى لهم مدير شرطة المدينة (رحلة جميلة). كانت النساء يُـخَيَّـرْنَ بين الإسلام وبين متابعة المسيرة ضمن القافلة إلى المصير الغامض. بعض النساء قبلن الايمان الجديد، لكن مع ذلك لم تنته عذاباتهن الأرضية. كان عليهن أن يسلمن أطفالهن لدار أيتام المسلمين لكي يربوا تربية جديدة. يجب على النساء أن يُـظـهِـرْنَ اخلاصهن لايمانهن الجديد وذلك بهجر أزواجهن المسيحيين والزواج من المسلمين. إذا لم يقبل أي مسلم بالزواج من احداهن، كانت عندئذ تهجّر وهي تستنكر بشدة على أنها أجبرت على الإسلام.

بعض رجال الدين الأرمن الشهداء
٢٤ نيسان ١٩١٥

بعض الشعراء والكتاب الأرمن الشهداء
٢٤ نيسان ١٩١٥

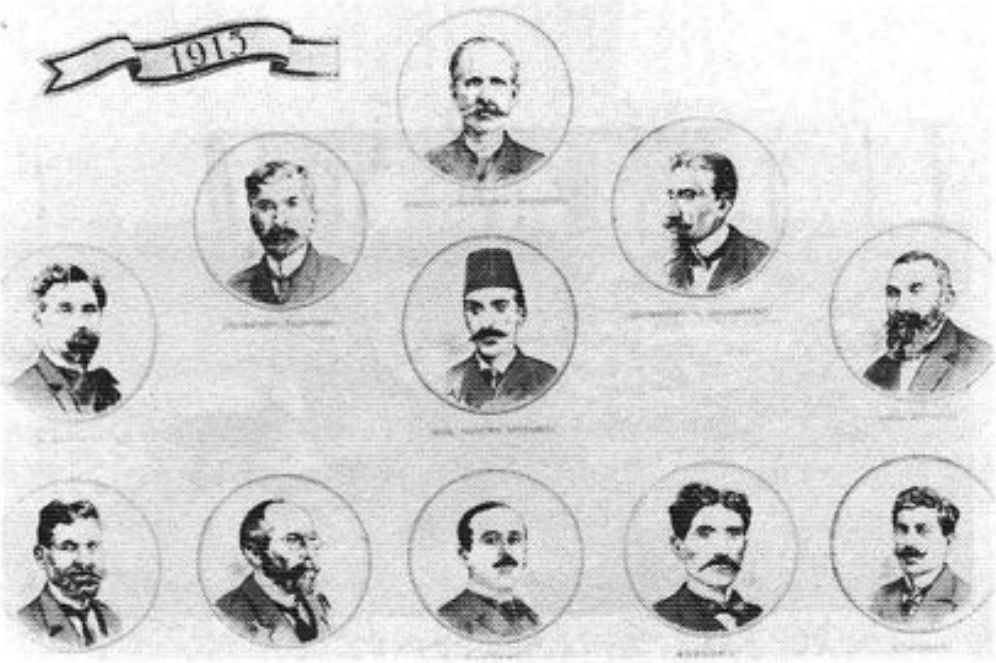

بعض السياسيين الوجهاء الأرمن الشهداء
في ٢٤ نيسان ١٩١٥

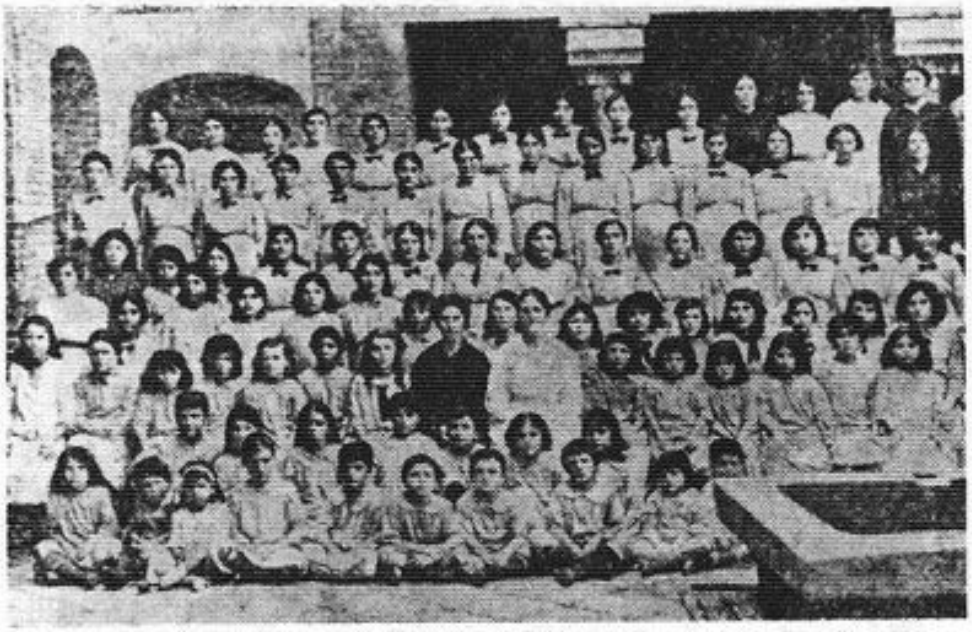

اليتيمات الأرمنيات في بور سعيد ١٩١٦

شهداء الأرمن في منطقة أنقرة

عظام الشهداء الأرمن في الشدادة (سورية)

صورة عن النسخة الأصلية «للفرمان» الملكي الهاشمي

وثيقة تاريخية هامة

من جملة الوثائق التاريخية التي تثبت حماية العرب المسلمين للنصارى وخاصة الأرمن، الرسالة الصادرة عن شريف مكة الملك حسين بن علي سنة ١٣٣٦ هـ ١٩١٧ م. وفيها يوصي الأميرين فيصل وعبد العزيز الجربا بالمحافظة على أبناء الطائفة الأرمنية وتسهيل مهمتهم في ظعنهم وإقامتهم باعتبارهم أهل ذمة المسلمين وقد أثبتناها بنصها وهذا ما جاء فيها[١] :

بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن علي ملك البلاد العربية وشريف مكة وأميرها إلى الأمراء الاجلاء الأماجد الأمير فيصل والأمير عبد العزيز الجربا، السلام ورحمة الله وبركاته. أما بعد صدرت الأحرف من أم القرى بتاريخ ١٨ رجب ١٣٣٦ نحمد الله الذي لا إله إلا هو إليكم ثم نصلي ونسلم على نبيه وآله وصحبه وسلم. ونخبركم بأنه والثناء له تبارك وتعالى بصحة وعافية ونعمة من فضله ضافية وافيه أسبل الله علينا وإياكم سوابغ نعمه. وإن المرغوب بتحريره المحافظة على كل من تخلف بأطرافكم وجهاتكم وبين عشائركم من الطائفة اليعقوبية الأرمنية تساعدوهم على كل أمورهم وتحافظون عليهم كما تحافظون على أنفسكم وأموالكم وأبنائكم وتسهلون كل ما يحتاجون إليه في ظعنهم وإقامتهم فانهم أهل ذمة المسلمين والذي قال فيهم صلوات الله عليه وسلامه من أخذ عليهم عقال بعير كنت خصمه يوم القيامة وهذا من أهم ما نكلفكم به وننتظره من شيمكم وهممكم والله يتولانا وإياكم بتوفيقه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الخاتم

---

(١) ورد خطأ في نص الرسالة (الطائفة اليعقوبية الأرمنية ... إلخ) والواقع أن الأرمن ليسوا يعقوبيين أي سريان بل أن طقوس كنيستهم المونوفيزية شبيهة بالكنيسة اليعقوبية.

في بداية الأمر أظهرت الدولة بعض الميل لحماية هذه الحشود الراحلة. كان المسؤولون يقسمونهم عامة إلى جماعات كل واحدة منها تعد عدة مئات وفي بعض الأحيان كانت مؤلفة من عدة آلاف انسان. جَهَّزتْ السلطة في بعض الأحيان عربات تجرها الثيران لنقل الأثاثات المنزلية وكان المهجرون يتدافعون للتسلق عليها. كان يصطحب كل قافلة حرس من الدرك ظاهرياً لحمايتهم وقيادتهم. كانت النساء يحملن بين أذرعهن وعلى ظهورهن أطفالهن ويمشين جنباً إلى جنب مع الرجال المسنين الذين يعرجون ويمشون متكئين على عصا من الخيزران أو القصب. كان الأطفال يركضون على طول الطريق، وفي المراحل الأولى كانوا يحسبون هذا لهواً ورحلة خارج بيوتهم. كان المياسير منهم يملكون حصاناً أو حماراً وفي بعض الأحيان يحتفظ الفلاح ببقرة أو شاة وبذلك يأخذ الموكب صورة مُرَقَّشَةً بمسيرة العائلة مع حيواناتها الأهلية من كلاب وقطط وطيور. بدأت هذه القوافل البائسة بالرحيل من آلاف المدن والقرى الأرمنية وملاؤا جميع الطرق التي تؤدي إلى الجنوب. في كل مكان يتحركون فيه كانوا يثيرون عاصفة من الغبار ورائهم. كانت الأشياء التي تخلّوا عنها على قارعة الطريق من الكراسي والبطانيات والشراشف والأدوات المنزلية وأشياء مختلفة أخرى تشير إلى وجهة القوافل.

حينما بدأت القوافل بالسير كان الأفراد يحملون سمات البشر لكن بعد ساعات قليلة من السفر كسا غبار الطريق وجوههم وثيابهم وتشكلت قشرة صلبة على أرجلهم من وحل الطريق وبسبب تعبهم ووهنهم الشديدين ووجوههم المخبولة وبسبب وحشية «حُماتهم» كانوا يشبهون نوعاً جديداً وغريباً من فصائل الحيوانات. كانت كل الطرق الرئيسية في آسيا الصغرى مزدحمة بهؤلاء الجماعات المهاجرين المساكين وذلك في الأشهر الستة الأولى من عام ١٩١٥. كانوا يعرجون داخل الوديان وخارجها ويتسلقون تقريباً كل الجبال والهضاب ويعرفون جيداً أن الطرق كلها تؤدي حتماً إلى الموت. قرية بعد قرية ومدينة بعد مدينة فُرّغت من سكانها الأرمن. في الظروف المزعجة هذه وخلال مدة ستة أشهر هُجّر حسب معلوماتنا حوالي ١ر٢ مليون من الناس إلى الصحراء

السورية . «صلّوا من أجلنا» كانوا يقولون وهم يهجرون بيوتهم التي عاش فيها أجدادهم مدة /٢٥٠٠/ سنة «لن نراكم في هذه الدنيا مرة أخرى . لكننا سنلتقي يوماً ما ، صلّوا من أجلنا» .

لم يكن الأرمن قد تركوا بيوتهم بعد حينما بدأت الاضطهادات . كانت الطرق التي يمشون عليها ضيقة كدروب الدواب . كانت القافلة التي تبدأ بالسير بانتظام قبل ساعات قليلة ، تتحول فيما بعد إلى جموع زاحفة بدون ترتيب . فُصِلَتْ النساء عن أطفالهن والأزواج عن زوجاتهم . إنقطع الاتصال بين المسنين وعائلاتهم بعد فترة قصيرة بسبب كبرهم وتعبهم الشديد وتقرّح أقدامهم . كان سائقو عربات الثيران الأتراك يرمونهم ويرمون ممتلكاتهم فجأة على قارعة الطريق بعد ابتزازهم حتى آخر قرش ، ويرجعون ثانية إلى القرية لإيجاد ضحايا أخرى جديدة . هكذا بعد فترة قليلة من الوقت كانوا يُكرهون الشباب والمسنين للسير على الأقدام . فالدرك الذين أرسلوا «لحماية» هؤلاء المهاجرين أصبحوا ، بعد ساعات قليلة ، معذبيهم . كان الدرك يمشون حاملين بنادقهم المحشوة والحراب مثبتة عليها . كانوا يحثّون بوحشية كل واحد من المهجّرين على المشي حينما يبدي تباطؤاً في خطواته أما أولئك الذين يحاولون الاستراحة أو يقفون على الطريق من شدة التعب فكانوا يجبرون بوحشية للإنضمام إلى الحشد . حتى إنهم كانوا يحثون النساء الحوامل على المشي تحت تهديد الحراب . إذا ولدت واحدة منهن على الطريق ــ ولم يكن هذا نادراً ــ كانت هذه المرأة تجبر على الوقوف والانضمام رأساً إلى المشاة . هكذا أصبح طريق السفر الطويلة صراعاً مستمراً مع السكان المحليين . كانت مفارز من الدرك تعلم القبائل الكردية أن ضحاياهم يقتربون ويخبرون الفلاحين الأتراك أيضاً أن الفرصة التي انتظروها طويلاً قد وصلت . حتى أن الدولة قد فتحت سجونها في كل أنحاء تركيا وأطلقت سراح المجرمين وأوصتهم أن يتصرفوا (كمسلمين جيدين) تجاه الأرمن الذين يقتربون . وهكذا كانت كل قافلة تخوض معارك مستمرة للوجود مع عدة طبقات من الأعداء . مع الدرك المرافقين للقوافل والفلاحين الأتراك والقبائل الكردية

وقطاع الطرق من كل نوع. يجب علينا أن نتذكر دائماً أن أولئك الرجال الذين تمكنوا من مساعدة عابري السبيل المساكين، قتلوا كلهم تقريباً أو أجبروا على الخدمة الالزامية في الجيش كعمال سخرة. كان هؤلاء المهاجرون يُجردون من كل أنواع الأسلحة قبل بداية السفر. وبعد ساعات قليلة من السفر كان الأكراد يندفعون من بيوتهم الجبلية ويهاجمون الفتيات ويرفعون خمارهن ويخطفون الجميلات منهن نحو التلال. كانوا يسرقون الفتيات الصغيرات بدون رحمة لإرضاء نزواتهم الدنيئة. لو حصل أن وجدت في حوزة المهاجرين نقود أو أطعمة كان المهاجمون يستولون عليها وبذلك يتركونهم فريسة الجوع بلا أمل. كانوا يسرقون حتى ثيابهم. وكان الرجال والنساء يبقون في حالة من العُري الكامل. خلال مدة السلب كلها كان الأكراد يقتلونهم بكل حرية، وصراخ النساء والرجال المسنين يزيد الفزع العام. سيجد الناجون من هذه الاعتداءات المكشوفة فظائع جديدة تنتظرهم في القرى التركية. هنا سيهاجم الأفظاظ من رجال الأتراك النساء ويتركنهن أحياناً ميتات أو يهذين بِخُبْلٍ من معاناتهن بعد إمضاء ليلة حمراء ماجنة وشائنة من هذا النوع. يبدأ المهاجرون ــ لِنَقُلْ الناجون ــ بالسير من جديد في صباح اليوم التالي. كانت ضراوة الدرك الأتراك تزداد كلما طالت الرحلة. كان يُقتل بالحربة في الحال كل واحد يقع على الطريق من شدة الأعياء. بدأ الأرمن يموتون بالمئات من الجوع والعطش. حتى ولو وصلوا إلى الأنهار فالدرك لم يسمحوا لهم بالشرب وذلك لتعذيبهم فقط. تقرّحت أرجلهم العارية التي كانت تطأ رمال الصحراء الحارقة. إن الآلاف منهم وقعوا وماتوا أو قتلوا حيثما يرقدون. هكذا فالموكب الذي كان يتألف من الآدميين، خلال عدة أيام يصبح حشداً يمشي متعثراً على شكل هياكل عظمية مغطاة بالغبار والوحل تنظر بنهم شديد إلى فتات الطعام. كانوا يأكلون كل الفضلات والنفايات التي تقع على طريقهم. المشاهد الوحشية التي كانت تقع كل ساعة أوصلتهم إلى الخُبل والجنون. كانوا مرضى بكل الأمراض التي تصاحب الحرمان الشديد والمشقات، ولكنهم مع ذلك كانوا يحثون على السير بالسياط والعصي والحراب من قبل مضطهديهم.

توفيت الأم الأرمنية وولديها بسبب الأعياء والجوع
(دير الزور ١٩١٦)

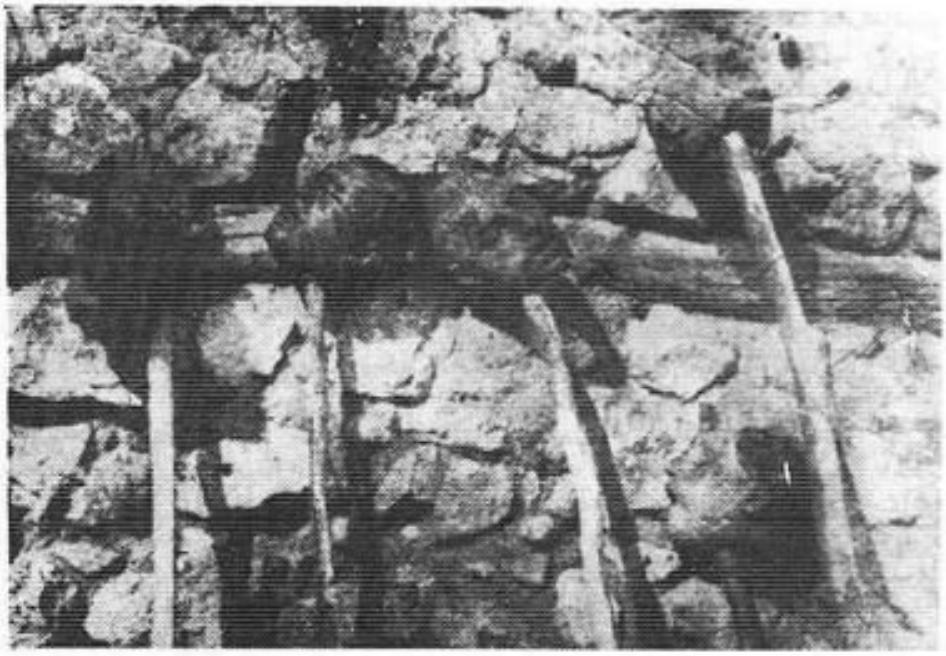

صورة حيّة للبربرية التركية (صورة من كتاب ألماني)

مشانق خمسة من الأرمن الأبرياء في حلب عام ١٩١٦

طفل يتيم قتل والداه يمشي وحيداً
مع قافلة المهجّرين

عندما كان المهاجرون يتحركون إلى الأمام كانوا يتركون خلفهم قافلة من الأموات بدون دفن، ورجالاً مسنين ونساء وصلوا إلى المرحلة الأخيرة، مرحلة الموت من مرض التيفوس والزحار والكوليرا، أما الأطفال الصغار المحمولون على ظهور أمهاتهم فانهم يصدرون العويل الأخير طلباً للأكل والشرب. كانت النساء يترجون المارة الغرباء ليأخذوا أطفالهن لانقاذهم من معذبيهم. عندما كن يفشلن في اقناعهم كن يرمين الأطفال في الآبار أو يتركنهم خلف الشجيرات ليموتوا على الأقل بسكينة. تُرك في الخلف جيش صغير من البنات اللواتي بيعت كعبيد بسعر مجيدية واحدة (حوالي ثمانين سنتاً) في أكثر الأحيان. كانت تلك النسوة، بعد أن يؤدين مآرب أسيادهن الوحشية الدنيئة كنّ يُدفعنَ إلى حياة البغاء بالقوة.

كانت قافلة من المرضى والمحتضرين ينامون جنباً إلى جنب مع الموتى. كانت تتبعهم أسراب من العقبان في الهواء والكلاب كانت تتقاتل من أجل نهش الجثث. كانت تلك الأسراب ترافقهم دائماً على الطريق.

إن أفظع المشاهد حدثت قرب الأنهار وخاصة قرب الفرات. كان الدرك في بعض الأحيان يدفعون النساء في الماء عند عبور هذا النهر ويطلقون بعدها الرصاص على كل انسان يحاول النجاة بنفسه بالسباحة. كانت النساء يلقون بأنفسهن في النهر لانقاذ أعراضهن وأطفالهن بين أيديهن. «في الأسبوع الأخير من شهر حزيران» اقتبس هذا من تقرير قنصلي على سبيل المثال «هُجرت مجموعات من النساء الأرمنيات في أيام متعاقبة من أرزروم. أبيد أكثرهن في الطريق إما بالرصاص أو الغرق. ألقيت في الماء سيدة تدعى زاروهي وهي غنية ومسنة. نجت هذه السيدة بنفسها وذلك بتشبثها بجلمود كبير في النهر. تمكنت من الاقتراب إلى الحافة ورجعت إلى أرزروم واختبأت في منزل أحد الأصدقاء الأتراك. أخبرت الأمير أركوتينسكي ممثل الجمعيات الفلاحية الروسية في أرزروم بأنها ترتعد حتى من أن تتذكر كيف قتل مئات من الأطفال بحراب الأتراك وألقوا في الفرات وكيف عرّوا الرجال والنساء وربطوا بعضهم ببعض بالمئات وقتلوا بالرصاص

والقوا بجثثهم في النهر . تقول أيضاً أنه في حنية النهر الضيقة عند مدينة إرزنجان ألقيت آلاف الجثث حتى أن النهر غيّر مجراه لزمن غير قصير لمسافة عدة مئات من الياردات بسبب هذا السد البشري الهائل .

إنه لمن السخف ادعاء الحكومة التركية أنها (نقلت الأرمن إلى بيوت جديدة) . إن الطريقة التي عوملت بها القوافل تبيّن بجلاء أن الهدف الرئيسي لأنور وطلعت كان الإبادة . كم من المهجرين وصلوا إلى غاياتهم نحو الجنوب تحت هذه الظروف الباعثة على الغثيان والتقزز في النفس ؟

أمدنّي بالتفاصيل التالية : القنصل الأمريكي في حلب وهي الآن ضمن مستندات الإدارة الأمريكية في واشنطن « في اليوم الأول من حزيران خرجت قافلة مؤلفة من ثلاث آلاف أرمني أكثرهم نساء وبنات وأطفال من مدينة خاربوت Harpout وتبعاً للعادة أمنت لهم الحكومة مرافقة مؤلفة من سبعين دركياً بإمرة الزعيم التركي البيك ... مع الوقت برهن هؤلاء الجنود طبقاً للخبرة السابقة بأنهم ليسوا حماتهم بل انهم معذبوهم وجلادوهم . لم يكونوا قد ابتعدوا إلا قليلاً من خاربوت حينما طلب هذا البيك /٤٠٠/ ليرة ذهبية من القافلة بذريعة أنه سيحميها حتى وصولها إلى مدينة ملاطية ، بعد أن سرق الشيء الوحيد الباقي لديهم وهو المال الذي يؤمن لهم الطعام ، هرب تاركاً الجميع تحت رحمة الدرك .

وجود هؤلاء البائسين على طول الطريق إلى رأس العين ــ المحطة الأولى على طريق بغداد أصبح سلسلة طويلة من الرعب . تقدم الدرك قافلة المهاجرين على الطريق ليخبروا القبائل الجبلية نصف المتوحشة بأن عدة آلاف من نساء وبنات الأرمن تقترب . بدأ العرب والأكراد يأخذون معهم البنات . هاجمهم الجبليون الأكراد مرات عديدة . ارهبوا وقتلوا النساء واشتركوا مع الأتراك في طقوس عربيدة ماجنة . قُتل الرجال القليلون الذين كانوا في صحبة القافلة واحد بعد الآخر . تمكنت بعض النساء في هذه الفوضى أن يخفين المال في أفواهن وشعرهن لتأمين حاجاتهن الضرورية . لكن مع ذلك كنَّ عرضة

للسلب لمرات عديدة من قبل رجال القبائل الكردية. في النهاية بعدما سرق ونهب وقتل الدرك «أمانتهم» لمدة ثلاثة عشر يوماً هجروهم تماماً. ذهب الأكراد إلى تلك الجماعة بعد يومين وأطلقوا الرصاص على كل الذكور الأحياء. لقد وجدوا مائة وخمسين شخصاً تقريباً تتراوح أعمارهم بين /١٥ ــ ٩٠/ سنة. أخذوهم على وجه السرعة وذبحوهم حتى آخر رجل.

انضمت قافلة أخرى إلى قافلة خاربوت وكانت تضم حوالي /١٨/ ألف انسان. استلم القيادة الآن بيك كردي آخر. كانت هذه الوظيفة فرصة للسلب والنهب والاغتصاب والقتل لكل القياديّن الذين عينّوا في هذا المنصب. استدعى رئيس العصابة هذا كل اتباعه من الجبال ودعاهم لتنفيذ كل رغباتهم على هذا الحشد الكبير من الأرمن. خطفت أجمل البنات يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة ورجعن أحياناً في حالة يرثى لها ليسردن القصة المفّصلة لعذاباتهن. كان كل مشرد من المسنين والعاجزين عن مرافقتهم يُقتل في الحال. كان يسمح للحقيرين من السكان الأكراد والأتراك (افتراس) البنات الأرمنيات عند وصولهن إلى القرى التركية والكردية. عندما وصلت هذه القافلة المتناقصة إلى ضفاف الفرات رأوا جثث مائتي رجل تعوم على السطح. خلال هذه المدة كلها كانت تتكرر سرقتهم حتى أنه لم يبق لديهم عملياً غير ثياب ممزقة وحتى تلك سرقها الأكراد. مشى هؤلاء شبه عراة لمدة خمسة أيام تحت شمس الصحراء القائظة. لم يحصلوا حتى على كل كسرة من الخبز وقطرة من الماء لمدة خمسة أيام أخرى. «وقع المئات على قارعة الطريق» يقول التقرير «ألسنتهم كانت سوداء كالفحم الحجري». حينما وصلوا إلى نبع بعد انتهاء الخمسة أيام اندفع كلهم إليه بشكل بديهي، لكن سدّ الشرطة الطريق عليهم ومنعوهم من شرب ولو نقطة واحدة من الماء. كانت غايتهم بيع كأس من الماء بليرة أو بثلاث ليرات، وفي بعض الأحيان احتفظوا بالماء بعد سرقتهم المال. قذفت النساء أنفسهن من شدة الظمأ في مكان آخر حيث توجد الآبار، لأنه لم يكن هناك لا دلو ولا حبل لسحب الماء. غرقت هذه النساء ومع ذلك شرب الباقون من تلك الآبار

رغم أن الجثث كانت تعوم على سطح الماء وتلوثها. عندما كانت الآبار سطحية في بعض الأحيان، كنّ ينزلن فيها ويخرجن بسهولة أما الباقون فقد كانوا يندفعون ليلعقوا أو يمتصّوا ثيابهن الندية والقذرة لإطفاء حريق ظمأهم المميت. عندما مرّوا من القرى العربية في حالة العُري هذه أشفق عليهم العرب وأعطوهم الثياب العتيقة ليستروا بها عورتهم. أشترى بعض المهجرين الثياب ولكن آخرون بقوا عراة طوال الطريق حتى وصلوهم إلى مدينة حلب. هذه النساء العرايا المسكينات كنّ بالكاد يمشين من خجلهن وظهورهن منحنية بشكل مضاعف.

في اليوم السابع عشر وصل بعض المخلوقات إلى حلب. وصل إلى الهدف /١٥٠/ من النساء والأطفال فقط من القافلة التي كانت مؤلفة من /١٨/ ألف شخص. بعض الجميلات كنّ لازلن يعشن كأسيرات عند الأكراد والأتراك. أما الباقيات فقد قتلن جميعاً.

إن السبب الرئيسي لسرد مشاهد من هذا النوع بدون التفاصيل هو أن الجمهور المتكلم باللغة الإنكليزية لا يمكنه أن يتصور بدقة عن ماهية هذه الأمة التي نسميها نحن تركيا.

إنني بدون شك لم أخبركم عن التفاصيل الفظيعة لأن السرد التفصيلي لهذه الطقوس العربيدة السادية التي كان الرجال والنساء الأرمن ضحيتها لا يمكن أن تنشر في الصحافة الأمريكية. أية جرائم يمكن للعقل البشري الشرير والمنحرف غريزياً أن يبتكر وأي تطور لطرق التعذيب والظلم يمكن لأحطّ خيال أن يتصور، أصبح المحنة اليومية لهذا الشعب المؤمن.

إنني واثق أنه لا توجد أحداث فظيعة كهذه في تاريخ الجنس البشري كله. إن المذابح والاضطهادات التي حدثت في الماضي تبدو تافهة بالمقارنة مع عذاب العرق الأرمني عام ١٩١٥. إن ذبح الالبيجينيس[٢] Albigenesis من الأحداث الجديرة

---

(٢) طائفة دينية في جنوب فرنسا أبيدت من قبل الصليبيين ومحاكم التفتيش الكاثوليكية ــ (المترجم).

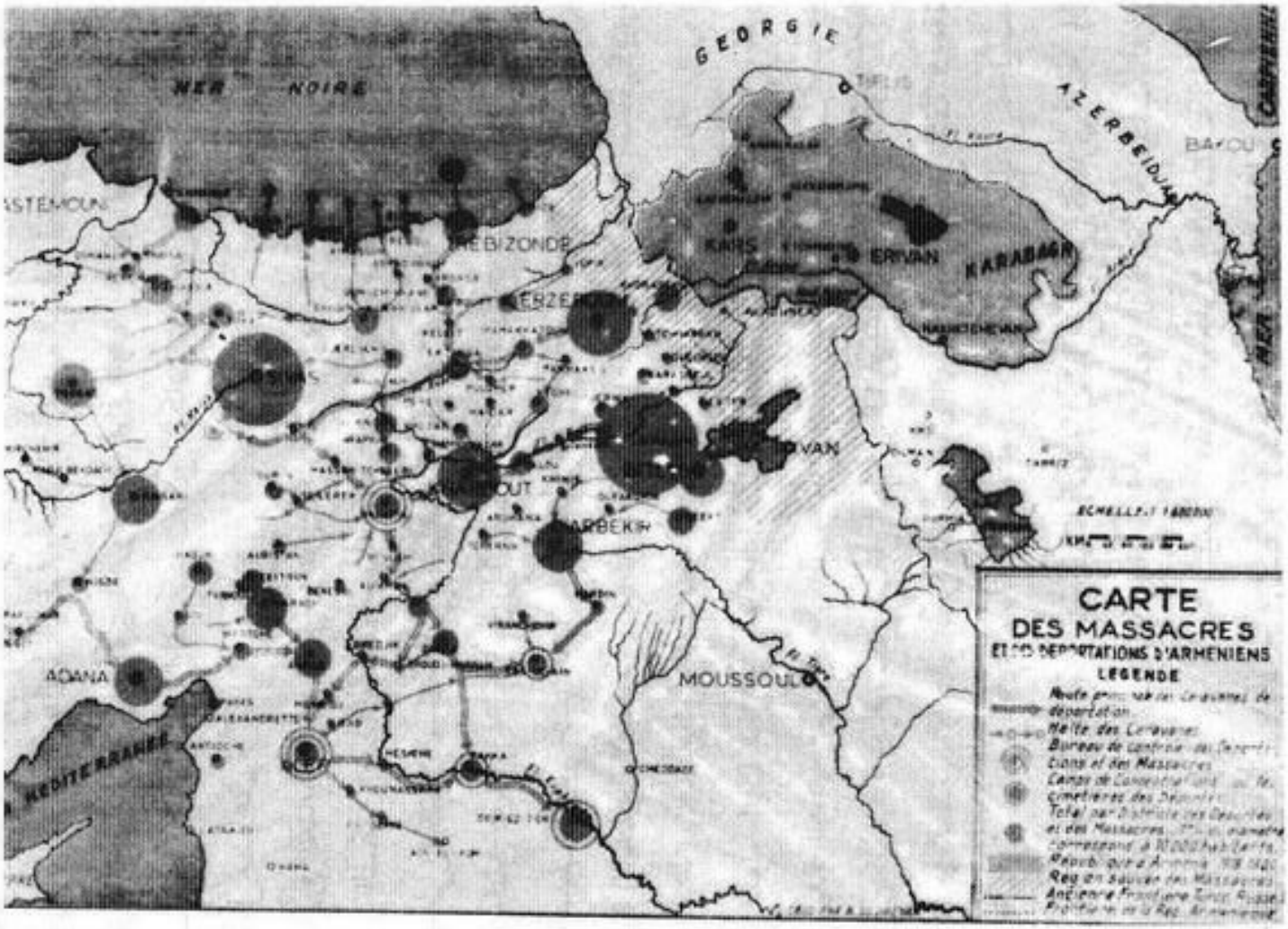

المناطق التي جرت فيها المذابح الأرمنية

كل ١ مليمتر من الدوائر يعادل /١٠ آلاف/ قتيل والأسهم تشير إلى مناطق التهجير القسري.

بالشفقة كثيراً في التاريخ حيث قتل حوالي /٦٠/ ألف انسان في هذه الهيجانات المتعصبة. في مذبحة القديس بارتلميو St. Barthelomew فقد حوالي /٣٠/ ألف انسان حياتهم. سبب الوسبرز Vesper الصقليين دمار ثمانية آلاف شخص وكانت هذه تصوّر على أنها من أفظع الثورانات الوحشية من هذا النوع. كتبت مجلدات عن محكمة التفتيش الاسبانية أيام حكم توركويمدا Torquemada، ومع ذلك بُعث إلى الموت ثمانية آلاف من الهراطقة فقط خلال مدة حكمه الثمانية عشر عاماً. من المحتمل أن الحادثة الوحيدة التي تشبه تهجير الأرمن كثيراً هو طرد اليهود من اسبانيا أيام فرديناند وازابيلا[٣] وفقاً لبريسكوت Prescott مئة وستون ألفاً أجتثوا من بيوتهم وانتشروا في افريقيا وأوروبا. مع ذلك كله تبدو هذه الاضطهادات تافهة حينما نقارنها مع شقاء الأرمن وتدمير حوالي /٦٠٠/ ألف أو ربما مليون من الأشخاص[٤].

حينما نحلل النفسية التي قامت بهذه الفظائع ضد الأرمن ونقارنها مع المذابح المبكرة خلال الحكم العثماني، نرى أن هناك تفسيراً واحداً يمكننا بالكاد أن نقبله كعذر. كانت كل هذه الاضطهادات والمذابح نتيجة التعصب الديني وكل الرجال والنساء الذين حرّضوا عليها كانوا بالفعل يؤمنون بصدق واخلاص إنهم يخدمون خالقهم بورع وانهم سينالون على ذلك الثواب في الآخرة. إن التعصب الديني عند الغوغاء والرعاع الأتراك والأكراد بدون شك كان الحافز الذي دفعهم لذبح الأرمن «خدمة لله». ولكن الرجال الذين فكروا وخططوا للجريمة كانوا عملياً كلهم ملحدين لا يحترمون لا الإسلام ولا المسيحية[٥] والباعث الوحيد عندهم كان تمرير سياسة الدولة الماكرة المجرمة.

---

(٣) كان السفير متوفياً عندما طرد اليهود مليون فلسطيني تقريباً من فلسطين ــ (المترجم).

(٤) الاحصائيات الدقيقة تقول أنه قتل مليون ونصف وشرد مليون أرمني.

(٥) كان جميع أعضاء حزب الاتحاد والترقي تقريباً من اليهود الذين أسلموا ومن أشهرهم طلعت وجمال وأنور. هؤلاء أسلموا ظاهرياً لضرب الامبراطورية العثمانية ودخول فلسطين من الباب العريض ــ (المترجم).

لم يكن الأرمن الشعب الوحيد بين الأمم التابعة لتركيا عانت من نتائج سياسة «جعل تركيا بلداً للأتراك حصراً». إن القصة التي سردتها عن الأرمن يمكنها أن تطبق مع بعض التعديلات على اليونانيين والسوريين أيضاً. كان اليونانيون في الحقيقة أول ضحايا سياسة الصهر والدمار هذه. وصفت سابقاً كيف أنه في الأشهر التي سبقت الحرب الأوروبية بدأت الدولة العثمانية بتهجير المواطنين اليونانيين على طول ساحل آسيا الصغرى. أثارت هذه الأحداث اهتماماً قليلاً في أوروبا والولايات المتحدة. اخرج أكثر من مائة ألف شخص من اليونانيين من بيوتهم على ساحل البحر الأبيض المتوسط وأرسلوا إلى الجزر اليونانية وإلى الداخل في مدة زمنية لا تزيد على ٣ــ ٤ أشهر. كان هذا التهجير «سلمياً» في أكثر الأحيان، أي هُجّر اليونانيون عملياً إلى أمكنة جديدة ولم يتعرضوا إلى الإبادة الجماعية. يمكننا أن نؤكد هنا أن عدم اعتراض العالم المتمدن ضد هذا التهجير شجع الأتراك مستقبلاً ليقرروا تطبيق نفس الطرق ليس على اليونانيين فحسب بل الأرمن والسوريين والنسطوريين وغيرهم من الشعوب الخاضعة لهم. قال قائد شرطة القسطنطينية بدري بك مرة لأحد السكرتيرين في السفارة أن الأتراك طردوا اليونانيين بنجاح تام حتى أن الحكومة قررت تطبيق نفس المنهج على كل عرق داخل الامبراطورية.

إن استشهاد اليونانيين نُفّذ خلال فترتين من الزمن. الفترة الأولى وهي فترة ما قبل الحرب والثانية في أوائل عام ١٩١٥. في الفترة الأولى تأثر اليونانيون الذين استوطنوا سواحل آسيا الصغرى أما في المرحلة الثانية تأثر هؤلاء الذين يعيشون في تراقيا Thrace والمناطق المحيطة ببحر مرمرة والدردنيل والبوسفور وسواحل البحر الأسود الجنوبية[٦]. سيقَ من هذه المناطق الأخيرة مئات الآلاف منهم إلى عمق آسيا

---

(٦) لماذا يستغرب الحكام الجدد في تركيا أن بلغاريا تطرد الأتراك من بلدها وهي التي عانت حوالي خمسمائة عام من سياسة الدمار والتتريك وبنت أهرامات من جماجم البلغار. إن البلغار انسانيون أكثر حينما يسمحون للأتراك المهجرين بأخذ كل اللوازم معهم (انظروا إلى برامج التلفزيون التركي)ــ (المترجم).

الصغرى. تبنّى الأتراك تقريباً نفس الطرق ضد اليونانيين. بدأوا تنفيذ ذلك بقبول اليونانيين في الجيش العثماني وتحويلهم بعدئذ إلى فرق عمل سخرة كي يعملوا في بناء الطرق في القفقاس وأعمال أخرى عديدة. مات من هؤلاء الجنود اليونانيين الآلاف من البرد والجوع والتعب تماماً كالأرمن. حدث التفتيش نفسه على الأسلحة المخفية ونفس المصادرات أيضاً. كان النهب غايتهم النهائية المنشودة. أجبر الأتراك اتباعهم اليونانيين على الإسلام سُرقت البنات اليونانيات كالأرمنيات وأرسلن إلى الحرملك التركي أما الأطفال فإنهم أرسلوا إلى المياتم التركية لإعادة تربيتهم. إتهم اليونانيون كالأرمن بالخيانة للدولة التركية. اتهمهم الأتراك بتزويد الغواصات الإنكليزية في بحر مرمرة بالمؤن والذخيرة وبأنهم يعملون جواسيس لهم. أعلن الأتراك أن اليونانيين غير مخلصين للحكومة العثمانية وإنهم ينظرون إلى اليوم الذي سينضمون إلى اليونان. هذه الاتهامات صحيحة بدون شك، لأن اليونانيين الذين عانوا من الاضطهادات التركية التي لا توصف خلال خمسة قرون، كانوا ينظرون بتوق إلى اليوم الذي ستصبح مناطقهم قسماً من الوطن، وهذا كان متوقعاً وطبيعياً جداً من قبل اليونانيين. تشبّث الأتراك بدورهم ــ كما هو في حال الأرمن ــ بهذا العذر للانقضاض العنيف على العرق كله. جمع اليونانيون في كل مكان وشكلت مجموعات منهم تحت «حماية» الدرك التركي وأبعد أكثرهم إلى الداخل سيراً على الأقدام[٧]. ليس معروفاً تماماً عدد الأشخاص الذين بُعثروا على هذا الشكل، ولكن تتراوح التقديرات بين /٢٠٠ ألف إلى مليون/ شخص. قاست هذه القوافل من عوز شديد، لكنها لم تباد بالكامل كالأرمن وهذا هو السبب على الأرجح أن العالم الخارجي لم يسمع بهم كثيراً. لم يعط الأتراك اليونانيين هذا الاعتبار من موقع أية شفقة. كانت لليونانيين عكس الأرمن[٨] حكومة تهتم بأمورهم الحيوية. كان الاعتقاد العام السائد عند

---

(٧) يهجر البلغار الأتراك هذه الأيام بالقطارات والبواخر لا مشياً على الأقدام وفي الصحراء كما جرى ذلك مع الأرمن واليونانيين.

(٨) استقلت أرمينيا الروسية في ٢٨ أيار ١٩١٨ وأصبحت دولة مستقلة لها كيانها الخاص ــ (المترجم).

الحلفاء في هذا الوقت أن اليونان ستدخل الحرب إلى جانب الحلفاء، والإبادة الجماعية لليونانيين في آسيا الصغرى ستغيّر بدون شك الرأي العام في اليونان بشكل أن الملك الميال للألمان لن يتمكن من إبقاء اليونان خارج مجال الحرب. إذن كانت هذه مسألة سياسية أنقذت بموجبها الدولة اليونانية مواطنيها في تركيا، لكن مع ذلك كانت معاناتهم فظيعة وتؤلف فصلاً آخر في التاريخ الطويل للجرائم وستكون تركيا مسؤولة عنها أمام الحضارة الانسانية.

الفصـــل الـرابـع

طلعـت يشـرح أسبـاب تهجيـر الأرمـن

مضى بعض الوقت قبل أن تصل أخبار الفظائع التي مورست على الأرمن إلى السفارة الأمريكية بكل تفاصيلها المرعبة . في شهر كانون الثاني وشباط بدأت تتسرّب إليّ تقارير متقطعة . كانت هذه في البداية تعتبر من الاضطرابات التي كانت تحدث من وقت إلى آخر في المقاطعات الأرمنية لسنوات طويلة . عندما وصلتنا تقارير من أورميا Urmia عن بعض الانتهاكات التي كانت تحدث هناك ، صرف طلعت وأنور النظر عنها معاً واعتبراها مبالغات طائشة . عندما سمعنا لأول مرة عن احداث مدينة وان ، أعلن هذان الزعيمان أن هذه القلاقل جرت من قبل الغوغاء وانهم سيسيطرون عليها بسرعة . إنني أرى الآن ما كان ليس واضحاً وظاهراً للعيان بَـعْـدُ في تلك الشهور المبكّرة . لقد قررت الدولة قدر استطاعتها على إخفاء الأخبار عن العالم الخارجي . كانت الفكرة أنه يمكن لأمريكا ولأوروبا أن تسمعا عن كل هذا ولكن بعد إبادتهم بشكل كامل فقط .

كان الأتراك يفكرون أن تبقى الولايات المتحدة خاصة في جهالة للأمور، ولذلك لجأوا إلى أشد المراوغات وقاحة حينما تداولوا معي ومع أركان سفارتي عن الموقف العام.

اعتقلت السلطات في أوائل شهر نيسان[1] حوالي مائتين من الأرمن في القسطنطينية وأرسلتهم إلى الداخل. كان أكثر هؤلاء المُبعدين من المثقفين ووجهاء القوم ومن المبّرزين في الصناعة والتجارة. عرفت بعض هؤلاء ولذلك كنت مهتماً بمحنتهم شخصياً. عندما تكلمت مع طلعت عن ترحيلهم، قال أن الدولة تعمل من منطلق الدفاع عن النفس[2]، قال إن الأرمن أظهروا مقدرتهم كثوار في وان ويعلم أيضاً أن هؤلاء الزعماء في القسطنطينية يراسلون الروس، وله الاعذار للخوف من أنهم سيقومون بعصيان مسلح ضد الحكومة المركزية. لذلك فإن أسلم طريقة هي إرسالهم إلى أنقرة والمدن الداخلية الأخرى. وأنكر طلعت أن هذا التصرف هو جزء من خطة عامة مدبّرة وأكد أن الجموع الأرمنية في القسطنطينية لن يُمسوا بسوء.

لكن أصبحت التقارير المبكرة من الداخل أكثر تحديداً ومقلقة جداً في نفس الوقت. إن انسحاب أسطول الحلفاء من الدردنيل غيّر الجو السياسي بوضوح. كانت هناك دلالات في ذلك الوقت أن كل شيء لا يسير على ما يرام في المقاطعات الأرمنية. أصبح أكيداً الآن أن أصدقاء أرمينيا التقليديين من بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا لا يمكنها أن تفعل شيئاً لهذا الشعب الذي يعاني، ولذلك بدأ القناع يختفي.

جُرِّدْتُ من امتياز استعمال الشيفرة للاتصال مع القناصل الأمريكيين في أنحاء تركيا. طُبقتْ أيضاً مراقبة صارمة جداً على الرسائل. هذه الأحداث كانت تعني شيئاً واحداً فقط، أن الحكومة التركية قررت أن تخفي أحداث آسيا الصغرى ولكنها طبعاً لم

---

(١) اعتقلت السلطات التركية في ٢٤ نيسان ١٩١٥ جميع الكتاب والشعراء والمثقفين والمتنفذين الأرمن في مدينة اسطنبول ونفتهم إلى الداخل حيث ابيدوا ــ (المترجم).

(٢) ماذا تفعل الحكومة البلغارية حالياً بعد أن بلغت تركيا ٤٪ من جزيرة قبرص؟ ــ (المترجم).

طلعت باشا
وزير الداخلية قتل في برلين
بتاريخ ١٦ آذار ١٩٢١

صوغومون تهلريان
أحد أعضاء «كوماندوس
العدالة والثأر» قاتل طلعت
باشا.

تنجح، لأنه تمكن بعض المبشرين الأمريكيين من الوصول إلى الداخل مع أن الحكومة وضعت كل أنواع العراقيل للسفر. كان المبشرون يجلسون ساعات في مكتبي والدموع تنهمر بغزارة على وجوههم وهم يقصّون عن الفظائع التي مرّوا منها. أصبح أكثر هؤلاء الناس عليلي الصحة تقريباً بسبب الفظائع التي شاهدوها بأم أعينهم. جلبوا لي، في حالات كثيرة، رسائل وتقارير من قناصلي يؤكدون القصص المرّوعة ويضيفون تفاصيل لا يمكن نشرها. إن فحوى كل هذه التقارير المباشرة تشير بجلاء أن الفسق المطلق في الطبيعة التركية الشهيرة بوحشيتها تفوّقت الآن حتى على نفسها.

كان هناك أمل واحد فقط ــ كما يخيّل إليّ ــ لإنقاذ مليونين تقريباً من البشر من المذابح، وهو القوة المعنوية للولايات المتحدة. أعلن هؤلاء المتكلمون باسم الشعب المتهم أنه ما لم يُقنّع السفير الأمريكي الأتراك أن يكفّوا عن أعمالهم الوحشية تلك فإن الشعب الأرمني سيختفي برمته من الوجود. لم يكن المبشرون الأمريكيون والكنديون هم الذين قدموا هذه الاستغاثة فقط، بل كذلك زملاء لهم من ألمان كثيرين يرجونني بأن أتوسط. أكد كل هؤلاء الرجال والنساء الأخبار السيئة التي سمعتها، ولم يبخلوا بتوجيه الاتهام والشجب حتى إلى موقف حكوماتهم. لم يخفوا شعورهم بالذل بسبب تحالف بلادهم مع شعب يرتكب هذه الجرائم. كانوا يعرفون السياسة الألمانية بالقدر الكافي ويعرفون أيضاً أن ألمانيا لن تتدخل أو تتوسط. لم تكن هناك فائدة من ترقب العون من القيصر. قالوا أن على أمريكا أن توقف المذابح وإلا سيمضي الأتراك قدماً في تنفيذ هذه المخططات الجهنمية. لم يكن لي طبعاً عملياً الحق في التدخّل طبقاً للأعراف الديبلوماسية السائدة. إن معاملة رعايا تركيا من قبل الحكومة التركية تُعد مسألة داخلية بحتة ما لم تؤثر بشكل مباشر على حياة ومصالح الأمريكيين، لذلك كانت هذه المسألة خارج اهتمامات الحكومة الأمريكية. عندما ذهبت لأول مرة إلى طلعت من أجل هذا الموضوع نبهّني بعبارات ليست غامضة إلى هذه الحقيقة. كانت هذه من أكثر المقابلات إثارة حتى تاريخه.

طلب مبشران مقابلتي وقصّا عليّ التفاصيل الكاملة والمرعبة لما يحدث في مدينة قونية Konia . بعد سماعي لقصصهما لم أستطع أن أكبح شعوري، ذهبت رأساً إلى الباب العالي . رأيت في الحال أن طلعت كان في أشد حالات غضبه . خلال أشهر قليلة كان يحاول تحرير أقرب صديقين له هما أيوب صبري وذو النون اللذان سُجنا من قبل الإنكليز في جزيرة مالطة . كان فشله في هذا الأمر يسبب له الثورة والغضب الشديدين . كان يتكلم عن ذلك دائماً ويقدم اقتراحات جديدة في كل مرة لإرجاع صديقيه إلى تركيا . كان طلعت يلجأ إليّ دائماً لمساعدته . أصبح الزعيم التركي عصبياً لدرجة أننا كنا نسمي هذه الحالة النفسية لطلعت « مزاج أيوب صبري »، حاول مرة أخرى أن يحرر المعتقلين وفشل هذه المرة أيضاً . كان يحاول كالعادة أن يحافظ على هدوئه الخارجي وأن يكون لطيفاً معي، ولكن جُمله القصيرة وحديثه السريع وصلابته وقسوته ومعصميه الغليظين اللذين وضعهما على الطاولة أشعرتني أن اللحظة غير مناسبة لإثارته وحثّه على فعل الخير والندامة . لذلك كلمته أولاً عن مبشر كندي هو الدكتور ماك نوتون (Dr. Mc Naughton) الذي يعامل بقسوة في آسيا الصغرى .

ـــ « الرجل عميل إنكليزي » ردّ عليّ طلعت « ونحن نملك الأدلة » .

ـــ قلت « دعني أرى ذلك » .

ـــ « لن نعمل أي شيء لأي إنكليزي أو كندي إلا بعد إطلاق سراح أيوب وذو النون » .

ـــ « وعدتني أن تعامل كل إنكليزي موظف عند الأمريكيين كأمريكي » .

ـــ « هذا ممكن » أجاب الوزير « لكن لم يخلق الوعد ليكون أبدياً إنني اسحب الآن وعدي، لأنه يوجد حدّ زمني لأي وعد » .

ـــ « لكن إذا كان الوعد غير مُلزِم، إذاً ما الحل؟ » سألته .

ـــ « الضمانة » أجاب طلعت بسرعة .

ـــ هذا المسؤول التركي كانت له اهتمامات معقدة صعبة الحل، أما المسائل التي

بهاء الدين شاكير
المنفذ الرئيسي للمذابح الأرمنية
في لجنة الاتحاد والترقي .
قتل في برلين بتاريخ ١٧ نيسان
١٩٢٢ .

جثتا بهاء الدين شاكير وجمال عزمي في مشرحة مدينة برلين
قتلا من قبل « كوماندوس العدالة والثأر »
أرشاوير شيراكيان وأرام يركانيان

أرشاوير شيراكيان
كوماندوس العدالة والثأر قاتل
بهاء الدين شاكر وجمال عزمي
مع آرام يركانيان

المجرمون الاتحاديون الذين قتلوا برصاص
« كوماندوس العدالة والثأر » الأرمن

سأناقشها معه فكانت أكثر عملية في ذلك الوقت، لذلك بدأت الكلام عن وضع الأرمن في مدينة قونية. بالكاد كنت قد بدأت الكلام حينما أصبح موقف طلعت أكثر شراسة ولمعت عيناه ببريق قوي ومال نحوي وأطبق فكيّه بقوة وقال:

ـــ «هل هم أمريكيون؟».

ـــ لم يكن السؤال ديبلوماسياً، وطريقته في الكلام تشير أن الأمر ليس من اختصاصي بعد لحظة عبّر طلعت عن هذا بكلمات أكثر.

ـــ يجب علينا ألّا نثق بالأرمن وعلاوة على ذلك إن ما نفعله بهم لا يعني الولايات المتحدة.

ـــ أجبت أنني أعتبر نفسي صديقاً للأرمن وإنني صُعِقْتُ بالطريقة التي يعاملون بها. لكنه هزّ كتفيه ورفض التباحث بالأمر. رأيت آنذاك أنني لن أنال منه شيئاً بالضغط عليه، ولذلك كلمته عن مواطن بريطاني لا يعامل بشكل لائق.

ـــ «هو إنكليزي أليس كذلك؟» أجاب طلعت «لذلك سأعمل معه ما أشاء».

ـــ «كُله إن أردت» أجبته.

ـــ «لا» قال طلعت «يمكن أن يسبب لي عسر هضم».

ـــ كان في حالة طيش وتهوّر بكل ما في الكلمة من معنى «ليعاقب الله إنكلترا» قالها بلغة ألمانية لا يفقه غير بضعة كلمات منها. «أما بالنسبة لأصدقائك الأرمن إننا لا نُعيرُ أية أهمية للمستقبل. نحن نعيش في الحاضر فقط. أما بالنسبة للإنكليز أتمنى أن تبرق لواشنطن أننا لن نفعل شيئاً من أجلهم حتى يخلوا سبيل أيوب صبري وذو النون» ثم مال إلى الأمام وضغط بيديه على قلبه وقال «إنه... أخي» الكلمات الإنكليزية القليلة التي كان يعرفها في الحقيقة. مع ذلك توسطت مرة ثانية من أجل الدكتور ماك نوتون.

ـــ «هو ليس أمريكي» قال طلعت «إنه كندي».

ـــ «هذا نفس الشيء تقريباً» قلت له.

ـــ «حسناً» أجاب طلعت «إذا تركته طليقاً هل تعدني أن تضم أمريكا كندا إليها؟».

ـــ « أعدك » قلت ، وضحكنا سوية على هذه النكتة الصغيرة .

ـــ « كل مرة تأتي إليّ » قال طلعت « تسرق مني شيئاً في النهاية ، حسناً يمكنك أن تأخذ ماك نوتون » .

ـــ بالطبع لم تكن هذه المقابلة بداية مشجعة بالنسبة لموضوع الأرمن . لكن لم يكن طلعت دائماً في « مزاج أيوب صبري » . إنه كان ينتقل بسرعة وسهولة كالأطفال من انفعال إلى آخر . كنت أراه يوماً صلباً وصاخباً لا يتراجع ويتكيّف بسهولة في اليوم الآخر . لذلك فمن الأفضل أن أنتظر لبرهات أكثر ملائمة قبل الاقتراب منه بشأن الموضوع الذي أثار كل البربرية في طبيعته .

ـــ سنحت مثل هذه الفرصة بسرعة . في أحد الأيام بعد عرض ومناقشة الأحداث التي أتى ذكرها سابقاً عرّجت على طلعت ثانية . أول شيء فعله أنه فتح الدرج وأخرج منه حزمة من البرقيات الصفراء .

ـــ « لماذا لا تعطينا هذا المال ؟ » قال طلعت مكشراً .

ـــ « أي مال ؟ » قلت .

ـــ « هذه برقية لك من أمريكا يرسلون مالاً كثيراً من أجل الأرمن يجب ألّا تستعملها بتلك الطريقة ، أعطها لنا لأننا بحاجة ماسة إليها مثلهم » .

ـــ « لم استلم مثل تلك البرقية » أجبت .

ـــ « لا ، ولكنك ستستلم » أجاب « إنني أحصل على كل برقياتك أولاً كما تعلم ، وبعد قراءتها أرسلها إليك » .

ـــ كانت هذه الحقيقة بعينها . في صباح كل يوم كانت جميع البرقيات غير المُشَفَّرة في القسطنطينية تقدم لطلعت ، الذي كان يقرأها قبل أن يوافق على إرسالها إلى عناوينها . لم تكن حتى برقيات السفراء في الواقع مستثناة مع العلم أنهم لم يتدخلوا في الرسائل المشفرة . كان باستطاعتي عادة أن أحتج ضد هذا الخرق لحقوقي ، ولكن صراحة طلعت الجذّابة عن سرقة أعداد قليلة من مراسلاتي وحتى تلويحه ببرقياتي أمام

وجهي أعطتني فرصة ممتازة للتكلم عن الموضوع الممنوع. لكن في هذه المناسبة ــ كما في مناسبات عديدة أخرى ــ كان طلعت مراوغاً ومتملّصاً وغير واضح وأظهر عداءاً كبيراً وسافراً لاهتمام الشعب الأمريكي بالشعب الأرمني. شرح مفصلاً أن الأرمن على اتصال دائم مع الروس. تركت هذه المحادثات في نهاية المطاف لديَّ القناعة التي لا لبس فيها أن طلعت كان أحقد عدو لهذا الشعب المضطهد. «ترك عليَّ طلعت انطباعاً» هكذا كان مدوناً في بداية مفكرتي في يوم ٣ آب «أنه الشخص الذي يود دمار الأرمن المساكين». أخبرني أن لجنة الاتحاد والترقي درست الأمر بكل تفاصيله بعناية والسياسة التي كانت تطبق هي السياسة التي تبنّوها رسمياً، وقال أنه يجب عليّ ألّا أتسرع في الحكم على أن التهجير تقرر تنفيذه بعجالة. في الحقيقة إنه نتاج مشاورات طويلة ودقيقة. كان في بعض الأحيان يجيب بجديّة وفي بعض الأوقات بعصبية وفي برهة أخرى بوقاحة لمناشداتي المتكررة لإظهار الرحمة لهؤلاء الناس.

ــ «في يوم من الأيام» قال مرة «سآتي إليك وسنبحث معك المسألة الأرمنية برمتها» ثم أجاب بصوت منخفض باللغة التركية:

ــ «لكن ذلك لن يحدث أبداً».

أشرت مراراً وتكراراً أن الأتراك كانوا ينظرون إلى كل مسألة على أنها مسألة شخصية. وجهة النظر هذه صعقتني ومن ناحية ثانية كان ذلك فضح كامل لسر العقلية التركية. إن الحقيقة التي لم تَلِجْ أبداً في فكرهم وذهنهم أن فوق كل الاعتبارات العرقية والدينية هناك أشياء مثل الانسانية والحضارة. «إنني لا أترجاك باسم أي عرق أو أي دين» قلت له «لكنني أتكلم معك كإنسان. قلتَ لي أنكم تريدون أن تجعلوا من تركيا قطعة من العالم الحديث المتحضّر. إن الطريقة التي تعاملون بها الأرمن لن تساعدكم على تحقيق طموحاتكم، لأنها تصنّفكم بين الشعوب الرجعية والمتأخرة».

« نحن نعامل الأمريكيين بشكل جيد أيضاً » قال طلعت « لذلك لا أرى سبباً لتذمرك » .

« إن الأمريكيين غاضبون بسبب اضطهاداتكم للأرمن » أجبت « يجب أن تبنوا مبادئكم على محبة الخير العام لا على التمييز العنصري ، وإلا فإن الولايات المتحدة لن تعتبركم لا صديق ولا مساوٍ لها . يجب عليكم أن تفهموا التغييرات الكبيرة التي تحدث عند المسيحيين في كل أنحاء العالم . إنهم ينسون اختلافاتهم وتَتَّحِدْ كل طائفة مع الأخرى . إنك تزدري المبشرين الأمريكيين ولكن لا تنس أن أحسن العناصر في أمريكا تساعدهم في عملهم الديني وفي إدارة مؤسساتهم التعليمية . ليس الأمريكيون مجرد أناس ماديين يركضون وراء المادة دائماً ، بل أنهم انسانيون بالمعنى الواسع للكلمة ، ويهتمون بنشر العدالة والحضارة في كل أنحاء العالم . ستواجه وضعاً جديداً بعد انتهاء هذه الحرب . أنت تقول أنكم إذا انتصرتم يمكنكم أن تتحدّوا العالم ، لكنكم مخطئون لأنكم ستجابهون الرأي العام العالمي في كل مكان وخاصة في الولايات المتحدة . لن ينسى شعبنا هذه المذابح ، إنهم دائماً سيستاؤون من الدمار الشامل الذي حصل للمسيحيين في تركيا . سينظرون إلى هذه الأمور على أنها قتل متعمّد فقط وسيدينون كل الذين كانوا المسؤولين عنه . لن يكون في إمكانك أن تقول أنك كنت تعمل كوزير للداخلية وليس كطلعت . إنك تتحدى كل معاني العدالة كما نفهم هذه العبارة في بلدنا » .

لم تضايقه كل هذه التعليقات بشكل غريب ولا غيّرت من عزمه ، كأنني كنت أتكلم مع حائط من حجر ثم تحوّل من أفكاري هذه إلى موضوع محدد .

ـــ « رفض الأرمن إلقاء السلاح حينما طلبنا ذلك . قاومونا في وان وزيتون وساعدوا الروس . هناك طريقة واحدة فقط للدفاع عن أنفسنا في المستقبل وهو أن نهجّرهم تماماً » .

« لنفترض أن بعض الأرمن خانوكم فعلاً » قلت « هل هذا سبب لتدمير عرق بكامله ؟ هل هذا عذر لتعذيب وقتل النساء والأطفال الأبرياء ؟ » .

« هذه الأشياء يُتَعَذَّرُ اجتنابها » أجاب .

لم تكن هذه العبارة واضحة تماماً لي بالقدر الذي أجاب عليه طلعت لاحقاً حينما سأله مراسل جريدة Berliner Tageblatt نفس السؤال . « إننا نُلام بأننا لا نفرق بين الأبرياء والمجرمين من الأرمن ، لكن ذلك غير ممكن تماماً ، لأن أولئك الذين هم أبرياء اليوم يمكن أن يكونوا مجرمين غداً » .

السبب الوحيد الذي لم يسمح لطلعت أن يتباحث معي حول هذا الموضوع بحرية تامة هو أن الموظف الذي يقوم بالترجمة كان أرمنياً . في أوائل شهر آب أرسل لي طلعت رسولاً خاصاً يسألني إذا كان باستطاعتي أن أراه بمفردي ، مع العلم أنه سيؤمن المترجم بنفسه . كانت هذه هي المرة الأولى التي اعترف ضمنياً أن معاملته للأرمن تهمني . جرت المقابلة بعد يومين . حدث أنني حلقت ذقني بعد آخر مرة زرت فيها طلعت . لم أكن قد دخلت غرفته بعد ، حينما بدأ الوزير الضخم يتكلم بطريقته المعهودة :

ـــ « أصبحت رجلاً شاباً ثانية » قال « أصبحت شاباً إلى حد أنه لن أتمكن من أخذ النصائح منك بعد الآن » .

ـــ « حلقت ذقني » أجبت « لأنه أصبح أشيباً بسبب معاملتكم للأرمن » .

ـــ بعد تبادل هذه الاطراءات جلسنا للتباحث .

ـــ « طلبت منك أن تأتي اليوم » بدأ طلعت بالكلام « لأشرح موقفنا من المسألة الأرمنية برمتها . نحن نبني اعتراضاتنا ضد الأرمن على ثلاثة نقاط أساسية واضحة . أولاً إنهم أثروا على حساب الأتراك وثانياً قرر الأرمن أن يهيمنوا علينا وذلك بتأسيس دولة منفصلة وثالثاً ساعدوا أعداءنا علينا . ساعدوا الروس في القفقاس وفشلنا هناك بسبب تصرفاتهم تلك . لذلك جئنا إلى القرار النهائي أنه يجب علينا أن نضعفهم قبل نهاية هذه الحرب » .

كانت لديّ ردود عديدة لكل نقطة من نقاط الاعتراض هذه . إن النقطة

الأولى لطلعت كانت القبول بشكل غير مباشر أن الأرمن متطورون صناعياً أكثر من الأتراك الكسالي والبليدين. لذلك فإن التنافس الصناعي والمالي عن طريق المذابح كانت فكرة جديدة مبتكرة. ثانياً تهمة أن الأرمن «يتآمرون» ضد تركيا وإنهم يتعاطون بشكل مفضوح مع أعداء تركيا، كانت تعني فقط ــ وحينما نرجع إلى الأسباب الأولية والفعلية للمسألة ــ أن الأرمن كانوا يستغيثون بالقوى العظمى الأوروبية لحمايتهم من السرقات والاعتداءات والقتل. إن المسألة الأرمنية ككل المسائل العرقية كانت نتيجة سوء المعاملة والجور عبر القرون الطويلة. يمكن برأيي أن يكون حلّ واحد لهذه المسألة، وهو خلق نظام مُرتّب للدولة، يُعامل فيه كل المواطنين على قدم المساواة والعدل وكل الاساءات تُعاقب باعتبارها أعمال فردية لا جماعية.

ــ ناقشنا هذه المسائل ومواضيع مماثلة أخرى لمدة طويلة. «ليس هناك فائدة من مناقشتك» أجاب طلعت «لأننا هجّرنا ثلاثة أرباع الأرمن بالفعل وليس هناك أحد منهم الآن في بتليس Bitlis ووان Van وارزروم Erzerum. إن الحقد بين الأتراك والأرمن شديد لدرجة أنه يجب علينا أن نقضي على الباقين، وإذا لم نفعل ذلك سيخططون للثأر (٣).

ــ «إن كانت لا تؤثر فيكم الاعتبارات الانسانية» أجبت «فكّر في الخسائر المادية. هؤلاء الناس تجاركم وإنهم ينظمون صناعاتكم العديدة ويدفعون الضرائب الكبيرة، ماذا سيحدث لكم تجارياً بدونهم؟».

ــ «لا نهتم بالخسارة التجارية أبداً» أجاب طلعت. «إننا حسبنا كل ذلك ونعلم أن الخسارة لا تتعدى الخمسة ملايين استرليني. لسنا قلقين بشأن ذلك. أنني طلبت منك أن تأتي هنا لأعلمك أن سياستنا الأرمنية ثابتة ولا يمكن لأي شيء أن يغيرها. لن نترك الأرمن في أي مكان من الأناضول، يمكنهم أن يعيشوا في الصحراء وفي أي مكان آخر».

---

(٣) قُتل كل زعماء الاتحاد والترقي تقريباً على يد «كوماندوس العدالة الأرمنية» ــ (المترجم).

ـــ حاولت اقناع طلعت أن هذه المعاملة تدمّر تركيا في أعين العالم وأن هذه البلاد لن تتمكن من إنقاذ نفسها من هذا العار. «إنكم ترتكبون خطأً فظيعاً» قلت له وكرّرت الجملة ثلاث مرات.

ـــ «يمكننا أن نرتكب الأخطاء» رد عليّ طلعت «لكن» وأغلق شفتيه بقوة وهزّ رأسه «لكننا لن نندم أبداً».

ـــ كانت لي محادثات كثيرة معه عن الأرمن لكنني لم أنجح أبداً في زحزحته ولو بدرجة قليلة. رجع دائماً إلى النقاط التي ذكرها في هذه المقابلة. كان تواقاً جداً لتلبية أي طلب لمصلحة الأمريكيين وحتى الفرنسيين والإنكليز، لكنني لم أقدر أن أحصل على أي تنازل لصالح الأرمن. يتراءى لي أن لديه إيمان عميق تجاه هذه المسألة وكان عداؤه وعناده ضد الأرمن يزيد بقدر ما تزيد معاناتهم.

ـــ في يوم من الأيام عندما كنت أتحدث مع طلعت عن أرمني معين، أخبرته أنه مخطىء إذ يعتبر هذا الانسان عدواً للأتراك. كان في الحقيقة صديقاً لهم.

ـــ «لا يوجد أرمني» رد طلعت «يمكن أن يكون صديقنا بعد ما فعلناه بهم».

ـــ في أحد الأيام طلب مني طلعت أغرب طلب سمعته في حياتي حتى الآن. إن شركة التأمين على الحياة في نيويورك وشركات أخرى كانت تتعامل مع الأرمن لسنوات طويلة. إن حجم المال الكبير الذي أمّن به هؤلاء الناس على حياتهم دلالة أخرى على عاداتهم النامية وطبعهم المقتصد. «آمل» قال طلعت «بأنك ستحصل من شركات التأمين على الحياة الأمريكية جدولاً كاملاً بحاملي بوالص التأمين الأرمن. عملياً كلهم متوفّون ولم يتركوا أحداً ليرثهم. في هذه الحالة تستولي عليها الدولة طبعاً. إن الدولة هي الوصية الآن، هل ستفعل ذلك»؟

ـــ هذا كان أكثر من أن يُطاق وكلامه هذا عكّر من مزاجي كثيراً. «لن تحصل مني على أي جدول من هذا النوع» قلت له. ووقفت منتصباً وتركته.

جرت حادثة أخرى مرتبطة بالأرمن أيضاً عكّرت صفو طلعت وأوصلته إلى

واحدة من أشد حالاته النفسية ضراوة. في نهاية شهر أيلول سافرت السيدة مورغنطاو إلى أمريكا. إن مآسي وعذاب الأرمن أطبق على صدرها وعقلها. وفي الحقيقة سافرت لأنها لم تتحمل العيش في هذا البلد أكثر من ذلك. قررت أن تقوم بآخر شفاعة من أجل هذا الشعب المسكين وعلى مسؤوليتها الخاصة. على طريق رجوعها إلى الوطن مرّت من بلغاريا واستلمت هناك دعوة حميمة من الملكة إليانور التي عبّرت عن سرورها لاستقبالها. ربما مَـهَّـدتْ لهذه الدعوة اهتمامات السيدة مورغنطاو في أعمال البرّ. كانت الملكة إليانور سامية المبادئ ونبيلة المشاعر تعيش حياة حزينة كئيبة وموحشة وتمضي أكثر وقتها تحاول تحسين أوضاع الفقراء في بلغاريا. عرفت كل شيء عن أعمال البرّ في المدن الأمريكية وقبل عدة سنوات وضعت كل خططها لزيارة الولايات المتحدة لدراسة مراكز الاستيطان هناك Colonies من المصدر رأساً. عند زيارة السيدة مورغنطاو كانت لدى الملكة ممرضتان أمريكيتان من مستوطنة مدينة نيويورك تعرّفان مجموعة من البنات البلغاريات بطرق الصليب الأحمر الأمريكي. كان الاهتمام الرئيسي لزيارتها للملكة التوسط من أجل الأرمن. وصلت مسألة دخول بلغاريا في الحرب إلى مرحلة خطرة في ذلك الوقت. بدأت تركيا تهيىء نفسها لتقديم التنازلات لتربحها إلى صفها. لذلك كانت اللحظة ملائمة لتقديم هذا الالتماس.

قضت الملكة والسيدة مورغنطاو في الحديث حوالي ساعة واحدة بشكل غير رسمي، تقص عليها زوجتي خلالها كل شيء عن الأرمن. أكثر الأشياء التي سردتها كانت جديدة كلياً للملكة. لم يكن حتى ذلك الوقت قد ظهر في الصحافة الأوروبية عن هذا الموضوع غير القليل. أعطت السيدة مورغنطاو كل الحقائق عن معاملة النساء والأطفال والشيوخ الأرمن وطلبت منها أن تتوسط لمصلحتهم. حتى أنها ذهبت أبعد من الحد المسموح في اقتراحها قائلة أنه سيكون فظيعاً إن أصبحت بلغاريا حليفة تركيا في الحرب.

قاست بلغاريا نفسها في الماضي من وحشيات الأتراك. تأثرت الملكة كثيراً ووعدت أن تتحقق من الأمر وتعمل ما بوسعها.

حينما كانت زوجتي تهم بالمغادرة، رأت الدوق مكلنبورغ Duke Mechlenbourg يقف أمام الباب. كان الدوق في صوفيا لمحاولة إشراك بلغاريا في الحرب. قدمته الملكة إلى السيدة مورغنطاو. كان سموه مؤدباً لكن سيماؤه الخارجي كان فاتراً ومجروحاً. إن تصرفاته والنظرات المتجهمة التي رماها على السيدة مورغنطاو دلّت بشكل خاص أنه سمع القسم الأكبر من المحادثة. لم يكن عجيباً طبعاً ألا يستسيغ توسط السيدة مورغنطاو لدى الملكة بأن لا تتحالف مع تركيا، بينما هو يحاول بشتى الضغوطات جلب بلغاريا إلى جانب ألمانيا.

اهتمت الملكة بالقضية الأرمنية مباشرة وبالنتيجة قدّم السفير البلغاري في تركيا احتجاجاً ضد هذه الوحشيات. هذا الاحتجاج لم ينجز أي شيء بل على العكس أيقظ حنق طلعت الشديد على السفير الأمريكي. عندما ذهبت بعد عدة أيام إلى الباب العالي في عمل روتيني رأيته في نفسية بشعة جداً. أجاب على كل أسئلتي بفظاظة وبكلمات أحادية المقطع. ومع ذلك كان ودياً بعد عدة أيام مثل كل مرة.. لأن بلغاريا وقفت بجانب تركيا في الحرب.

إن موقف طلعت من الأرمن يلخص بتفاخره المتغطرس أمام أصدقائه: «إنني أنجزت من القضية الأرمنية خلال ثلاثة أشهر فقط ما عجز عنه عبد الحميد خلال ثلاثين سنة».

الفصـــل الخـامس

أنـور باشـا يتبـادل الآراء حـول الأرمــن

كنت خلال هذه المدة كلها أضغط أيضاً علي أنور باشا، وزير الحربية. كان رجلاً مختلفاً عن طلعت. أخفي شعوره الحقيقي بنجاح أكبر بكثير. كان دمثاً في العادة وواقعياً ومهذباً وكثير الشك. لم يكن في بادىء الأمر صلباً وقاسياً عند التباحث عن الأرمن. رفض القصص السابقة كمبالغات مفرطة وأعلن أن الاضطرابات في وان هي مسائل حربية عادية وحاول أن يهدىء من روعي. على الرغم من أن أنور كان يحاول خداعي خلال تلك المدة كلها، كان في الوقت نفسه يقدم اعترافات علنية لأناس آخرين، وكنت على علم بها. لم يحاول أن يخفي حقيقة الموقف بشكل خاص عن الدكتور ليبسيوس (Dr. Lepsius) ممثل المصالح التبشيرية الألمانية. كان الدكتور رجلاً نبيلاً وجدياً. كان شاهداً على المذابح الأرمنية عام (١٨٩٥ــ١٨٩٦). جمع مبالغ كبيرة من المال لبناء المياتم لأطفال الأرمن الذين فقدوا أبويهم في ذلك الزمان. رجع ثانية عام

١٩١٥ ليستقصي حالة الأرمن بطلب من التبشيريات الألمانية التي تهتم بالأمر. طلب مني امتيازاً للاطلاع على تقارير الأمريكيين فمنحت له ذلك. لم تترك هذه المستندات مع إضافات أخرى حصل عليها من التبشيريات الألمانية في الداخل أي شك في ذهنه عن كنه السياسة التركية[١]. استشاط غضباً بشكل رئيسي ضد حكومته. عبّر أمامي عن الخزي والعار الذي شعر بهما كألماني حينما قرر الأتراك إبادة اتباعهم المسيحيين، بينما ألمانيا التي تسمى نفسها بالدولة المسيحية لا تسعى على منعهم. كان أنور لا يخفي عنه الهدف الرسمي. صُعق الدكتور ليبسيوس تماماً لصراحته عندما قال أنور أن لديهم الآن الفرصة المناسبة ليتخلّصوا من الأرمن وإنهم ينوون الاستفادة منها.

أصبح أنور في هذه المدة أكثر صراحة معي، لأن التقارير الكثيرة التي كنت أملكها لم تترك له مجالاً لمحاولة إخفاء الموقف الحقيقي أكثر من ذلك. كانت لنا مناقشات طويلة وحيّة عن هذا الموضوع. أتذكر واحدة منها بوضوح خاص. أعلمت أنور أنني أود التباحث في الموضوع بالتفصيل. منحني أنور وقتاً كافياً لمراجعة الموقف برمته.

«أُعطي الأرمن إنذاراً واضحاً» بدأ أنور بالكلام «لما سيحدث لهم في حال انضمامهم إلى أعدائنا. قبل ثلاثة أشهر طلبت بطريق الأرمن وأخبرته أنهم إذا حاولوا بداية ثورة أو مساعدة الروس عندئذ لن أتمكن من أن أمنع حدوث الأذى لهم. لم يؤثر إنذاري فيهم، ومع ذلك ساعدوا الروس. أنت تعلم ما حدث في وان. إنهم سيطروا على المدينة وألقوا بالقنابل على أبنية الدولة وقتلوا العديد من الأتراك. كنا نعلم أنهم يخططون للثورات في أماكن أخرى أيضاً. يجب عليك أن تفهم أننا نناضل من أجل حياتنا في الدردنيل واننا لذلك نضحي بآلاف الرجال. لا يمكننا أن نسمح لأناس يعيشون في

---

(١) كتب كتاباً عن مشاهداته بعنوان Deuchland und Armenien (1914-1918) – (المترجم).

أنور باشا
وزير الحربية

الدكتور ليبسيوس

بلدنا[٢] أن يهاجمونا من الخلف بينما نحن مشغولون بصراع من هذا النوع. يجب علينا أن نمنع هذا بكل الوسائط المتاحة لنا. إنني بدون ريب لا أعادي الأرمن كشعب، بل على العكس إنني معجب كثيراً بذكائهم ونشاطهم الصناعي والتجاري، ويسرّني أن أراهم يصبحون قسماً أصيلاً من شعبنا. لكن إذا تحالفوا مع أعدائنا كما فعلوا في وان يجب أن يُدمَّروا. بذلت جهوداً كبيرة لكي لا يقع ظلم ولا جور. أمرت في المدة الأخيرة فقط إرجاع ثلاثة أرمن هجرّوا من بيوتهم عندما وجدت أنهم أبرياء. إن فرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى وأمريكا لا تفعل حسناً لتعاطفها وتشجيعها للأرمن. أعرف جيداً ماذا يعني هذا التشجيع لشعب يميل إلى الثورة. حينما هاجم (الاتحاد والترقي) عبد الحميد حصلنا على التشجيع المعنوي من العالم الخارجي. كان التشجيع عوناً كبيراً لنا وله علاقة كبيرة في نجاحنا. وهذا التشجيع بشكل مماثل يمكن أن يساعد الأرمن وبرنامجهم الثوري. سيتخلّى الأرمن بكل جهودهم عن معارضة الحكومة الحالية وسيكونون مواطنين معطيعين للقانون إن كفّتْ هذه الدول الخارجية عن مساعدتهم. أصبحت هذه البلاد تحت سيطرتنا المطلقة، ويمكننا أن نثأر من أي ثوري».

«بعد كل هذا» قلت له: «لنفترض أن ما تقوله صحيح، لماذا لا تعاقبون المذنبين؟ لماذا التضحية بعرق بأكمله من أجل جرائم مزعومة لبعض الأفراد؟».

«إن وجهة نظرك صحيحة في أوقات السلم» أجاب أنور «يمكننا عند ذلك أن نستعمل طرقاً أفلاطونية لتهدئة الأرمن واليونانيين، ولكن في أوقات الحرب لا يمكننا أن نحقق ولا أن نفاوض، يجب علينا أن نتصرف بحزم وتصميم. أظن أن الأرمن يخطئون باعتمادهم على الروس. إن الروس في الحقيقة يريدونهم أمواتاً أكثر من أحياء. كما أن خطرهم كبير على الروس كذلك هم خطرون بالنسبة لنا. إذا حاولوا إنشاء دولة مستقلة هنا في تركيا، سينشىء اخوانهم هناك في روسيا دولة مستقلة أخرى. إن الأرمن مسؤولون

---

(٢) الأرمن هم السكان الأصليون لهذا البلد وأجدادهم الحوريون ــ الميتانيون وأهل مملكة أورارتو، أما الأتراك فهم المستعمرون، ان الأرمن يعيشون هناك منذ ٤ آلاف سنة ــ (المترجم).

أيضاً عن المذابح التي حدثت في كل أنحاء مقاطعة وان . هرب ثلاثون ألفاً من الأتراك وكل الباقين قتلهم الأرمن والأكراد . حاولت أن أحمي المدنيين في القفقاس وأعطيت أوامري بعدم إيذائهم، لكن رأيت أخيراً أن الموقف أصبح خارج سيطرتي . هناك حوالي سبعون ألفاً من الأرمن في القسطنطينية لن يزعجوا ماعدا أعضاء حزب الطاشناق وأولئك الذين يتآمرون ضدنا . مع ذلك يمكنك أن تريح ذهنك حول هذا الموضوع ، لأنه لن تكون هناك مذابح جديدة للأرمن .

لم آخذ كلام أنور الختامي على محمل الجد ، لأنه في الوقت الذي كان يتكلم ، كانت المذابح والتهجيرات القسرية تجري في كل المقاطعات الأرمنية الستة واستمرت بدون إعاقة لمدة ثلاثة أشهر .

عندما وصلت التقارير إلى الولايات المتحدة أصبحت مسألة الاعانات أمراً ملحاً . سمعت في نهاية شهر تموز أن هناك خمسة آلاف أرمني في منطقة زيتون والسلطانية لا ينالون الأكل البتة . تكلمت عنهم مع أنور الذي أيد الحقائق ووعد بأنهم سينالون الغذاء المناسب . لم يؤيد الاقتراحات بأن يذهب ممثلو الاعانات الأمريكية إلى تلك المنطقة من البلاد ليساعدوا ويهتمّوا بالمهجرين .

قال أنور « كل أمريكي يقوم بهذا العمل سيشجّع الأرمن على أن يسببوا مزيداً من المشاكل . هناك ثمانية وعشرون مليوناً من الناس في تركيا ومليون من الأرمن[٣] . إننا لن نسمح أن يعكّر المليون راحة بقية السكان . إن المشكلة الرئيسية للأرمن أنهم انفصاليون[٤] يعتزمون بناء ملكية خاصة بهم وسمحوا لأنفسهم أن يخدعهم الروس . إنهم يعتمدون على مساعدة الروس ولذلك ساعدوهم في هذه الحرب . يجب عليهم أن يتصرفوا كما يتصرف الأتراك . يجب عليك أن تتذكر أننا حينما بدأنا الثورة في تركيا كنا مائتي

---

(٣) عدد الأرمن في ذلك الوقت حسب المصادر الغربية ومصادر المطرانية الأرمنية في استنبول (٢٫٢٥ ــ ٢٫٥) مليون نسمة .

(٤) ما هو وضع الأتراك في قبرص ، هل اعترفت غير تركيا بدولتهم ؟ .

شخص تقريباً . تمكنّا مع هؤلاء الاتباع القليلين من خداع السلطان والجمهور الذين ظنوا أن عددنا أكبر بكثير ، وإننا أقوى مما يتصورون . تغلبنا على السلطان والشعب بسبب جرأتنا المطلقة وبهذه الطريقة وضعنا الدستور الجديد . نخاف من الأرمن بسبب تجاربنا الثورية . إذا تمكن مائتا شخص من قلب الحكومة ، فليس غريباً أن يتمكن عدة مئات من الأرمن اللامعين والمثقفين أن يفعلوا الشيء نفسه . لذلك تبنينا نحن عمداً بعثرتهم لكي لا يتمكنوا من إيذائنا . أنذرت البطريرك الأرمني ــ كما ذكرت سابقاً ــ أنه إذا هاجمنا الأرمن ونحن منشغلون بحرب خارجية ، سنردّ عليهم بعنف ولا غنى عن ذلك » .

كان أنور يردّ على أعقابه دائماً كل اقتراح من قبل التبشيريات الأمريكية أو أصدقاء الأرمن الآخرين لمساعدتهم .

« إجمالاً إنهم يتعاطفون معهم كثيراً » قال ذلك مرات ومرات .

اقترحت أن يذهب أمريكيون محددون إلى طرسوس Tarsus ومارزوفان Marzovan .

« إذا ذهبوا إلى هناك أخشى عليهم من السكان المحليين في تلك المنطقة أن يغضبوا ويميلوا إلى بداية الشغب الذي يمكن أن يؤدي إلى حوادث لا تحمد نتائجها . لذلك فمن الأفضل عندئذ أن يبتعد المبشرون الأمريكيون عنهم » .

« لكنكم تدمرون البلد اقتصادياً » قلت في وقت آخر مردداً الحديث نفسه الذي جرى مع طلعت . أجاب تقريباً بنفس الكلمات مؤكداً بذلك أن الموضوع بكامله درس بدقة من قبل السلطات الحاكمة .

« إن الاعتبارات الاقتصادية ليست لها أهمية في هذا الوقت . إن الشيء الوحيد المهم هو أن ننتصر . هذا هو الشيء الأهم في ذهننا الآن . سيكون كل شيء على ما يرام إذا انتصرنا ، وإذا خسرنا سيكون كل شيء سيئاً على أية حال . إن وضعنا يائس جداً

وإنني اعترف بذلك، وإننا نحارب كما يحارب الرجال اليائسون. لن نسمح للأرمن بضربنا من الخلف».

إن مسألة الاعانات للأرمن الذين يتضورون جوعاً أصبحت ملحّة أكثر فأكثر كل أسبوع لكنه كان يصرّ بأنه يجب على الأمريكيين أن يبتعدوا عن المقاطعات الأرمنية. «كيف يمكننا أن نمد الأرمن بالخبز» أعلن أنور «حينما لا نقدر أن نحصل على كمية كافية لشعبنا؟ أعلم أنهم يعانون وانه من المحتمل ألا يحصلوا على الخبز أبداً في الشتاء القادم. إننا في وضع صعب إلى أقصى الحدود لتأمين الدقيق والثياب في القسطنطينية ذاتها».

قلت له إنني أملك المال، وأن المبشرين الأمريكيين تواقون للذهاب واستعماله لصالح المهجّرين.

«لا نريد أن يطعم الأمريكيون الأرمن «ردّ بفتور» إن ذلك من أسوأ الأشياء التي تحدث لهم. قلت لك سابقاً إنهم يؤمنون أن لهم أصدقاء في الدول الأخرى وهؤلاء يشجعونهم على معارضة الحكومة. وهكذا يجلبون كل التعاسات على أنفسهم. إذا بدأتم أنتم الأمريكيون بتوزيع الطعام والملبس سيظنون أن لهم أصدقاء أقوياء في الولايات المتحدة وهذا سيشجعهم على الثورة وعندئذ سنضطر لمعاقبتهم أكثر من ذي قبل. أما إذا أعطيتنا ذلك المال فسنهتم بأن يصرف لفائدة الأرمن». اقترح أنور هذا بصراحة تامة وأعاد الاقتراح في مناسبات عديدة أخرى. في الدقيقة التي كان أنور يقترح هذا، لم يكن الدرك والمسؤولون الأتراك ينهبون كل حاجات الأرمن المنزلية ومالهم وطعامهم فحسب، بل كانوا يجرّدون النساء من آخر اسمالهن البالية ويدفعون أجسادهن العارية بالحراب وهن يترنّحنَ على رمال الصحراء الحارقة. والآن يقترح وزير الحربية أن نعطي المال الأمريكي إلى هؤلاء «حراس القانون» لتوزيعها على أولئك الذين في «عهدتهم». لكن مع ذلك كان عليّ أن أكون لبقاً. قلت «إذا تعهدت أنت أو أحد المسؤولين

الآخرين بالتوزيع شخصياً سنكون سعداء طبعاً لائتمانكم المال، ولكن لا تنتظر مني طبعاً أن نعطي هذا المال إلى الرجال الذين يقتلون رجال الأرمن ويغتصبون نساءهم».

لكن رجع أنور إلى النقطة الأساسية مرة ثانية. «يجب ألا يعرفوا» قال أنور «أن لهم أصدقاء في أمريكا، لأن ذلك سيدمرهم بشكل كامل. الأفضل أن يموتوا جوعاً. عندما أقول هذا أفكر في صالح الأرمن أنفسهم. سيهدأون وسيعترفون أن تركيا ملجأهم الوحيد وسيصبحون مواطنين هادئين إذا أُقنِعوا بأنه ليس هناك أصدقاء لهم في البلدان الأخرى. إن بلادك تجرّ عليهم مشقات أكثر باظهارها هذا التعاطف نحوهم. بمعنى، كلما أرسل الأمريكيون المال لإطعام الأرمن كلما أبادت تركيا عدداً أكبر منهم».

كان منطق أنور جنونياً في الواقع، ولكنه رضخ في النهاية وسمح لي بمساعدة بعض المعذبين عن طريق التبشيريات. في كل محادثاتنا كانت ذريعته الكاذبة التي كان يتمسك بها أنه في الحقيقة صديق هذا الشعب وأكد أن الطرق القاسية التي يتبناها تجاههم هي الرحمة بعينها. في هذا كان موقفه مختلفاً تماماً عن موقف طلعت الذي اعترف بشكل علني أنه ينوي تهجيرهم. «بذلت جهداً عظيماً» قال أنور لتحضير خطة متقنة لتحسين أوضاعهم». اقترحت عليه إن كان يريد حقاً أن يكون عادلاً، عليه أن يحمي المهجرين الأبرياء ويقلل من آلامهم قدر الاستطاعة. ولهذه الغاية يجب عليه أن يعيّن لجنة خاصة من الأرمن لمساعدته وإرسال أرمني كفوء مثل أوسكان أفندي ــ وزير البرق والبريد سابقاً، لدراسة الأوضاع وتقديم الاقتراحات لمعالجة الشرور الموجودة. لم يوافق أنور على الاقتراحين. أما بالنسبة لاقتراحي الأول قال أن زملاؤه سيسيئون الفهم وبالنسبة لأوسكان قال أنه معجب به لعمله الجيد المُتقن عندما كان في الوزارة، ودَعَمَهُ وقتها في شدّته ضد المسؤولين غير الكفئين ومع ذلك لا يثق به لأنه عضو في حزب الطاشناق.

قلت في حديث آخر لأنور أن الحكومة المركزية لا تُلام في تخطيط وتنفيذ المذابح الأرمنية. ظننت أن ذلك لن يكون مثيراً لغضبه «طبعاً إنني أعرف أن الوزارة لن تأمر

أبداً بأمور فظيعة كهذه» قلت له «أنت وطلعت وبقية أعضاء اللجنة لا تعتبرون مسؤولين عن ذلك. إن مرؤوسيك ذهبوا بدون شك أبعد مما كنت تنوي عليه. إنني أدرك أن السيطرة على المرؤوسين ليست سهلة دائماً» صرّحت أيضاً أنه تحدث في تركيا أشياء لا هو ولا زملاؤه مسؤولون عنها.

انتصب أنور فجأة. رأيت أن ملاحظاتي أغاظته جداً بدلاً من أن تمهّد الطريق لمناقشة هادئة وودية. «أنت مخطئ جداً» قال «إن هذا البلاد هي تحت سيطرتنا المطلقة. لا أنوي أن أحوّل اللوم على المرؤوسين بل أتحمل كامل المسؤولية عن كل شيء حدث. إن الوزارة بنفسها قررت التهجّير. إنني مقتنع أننا مبرّرون كلياً في عملنا هذا استناداً إلى الموقف العدائي للأرمن تجاه الدولة العثمانية. لكن نحن الحكام الحقيقيون لتركيا ولا يجرؤ أي مرؤوس على التصرف بدون أوامرنا». حاول أنور التلطيف من بربرية موقفه العام وذلك بإظهار وإعلان العفو في بعض الحوادث المعينة. إنني لم أنجح في مساعيّ لوقف برنامج المذابح الشامل ولكنني أنقذت بالفعل بعض الأرمن من الموت. في أحد الأيام استلمت برقية من القنصل الأمريكي في سميرنا (أزمير) Smyrna بأن سبعة من الأرمن حكم عليهم بالأعدام شنقاً. اتُّهِمَ هؤلاء الرجال بارتكاب إثم سياسي غامض في عام ١٩٠٩. لكن رغم ذلك لم يصدق هذه التهمة لا رحمي بك حاكم مدينة أزمير ولا آمر الموقع العسكري. عندما وصل أمر التنفيذ إلى أزمير، أبرقت سلطات هذه المدينة بأنه يحق للمتهم حسب القانون العثماني أن يتقدم إلى السلطان لطلب الرحمة. إن جواب البرقية يشير بجلاء مدى اعتبار حقوق الأرمن في ذلك الوقت. قالت البرقية «نظرياً أنت على حق، أشنقهم أولاً وأرسل طلب العفو بعدئذ».

زرت أنور في عيد الفطر لأتكلم عن قضية هؤلاء الرجال. هذا هو أكبر الأعياد الإسلامية الذي يلي رمضان شهر الصيام. إن عيد الفطر له صفة مشتركة وعامة مع عيد الميلاد. كانت العادات تنص على أن يتبادل المسلمون الهدايا الصغيرة وخاصة الحلويات. بعد مراسم التهنئة قلت لأنور:

ـــ « اليوم هو العيد ، وإنك لم ترسل لي أية هدية حتى الآن » .

ـــ ضحك أنور « ماذا تريد ؟ هل أرسل لك علبة حلويات ؟ » .

ـــ « لا » قلت « إنني لست بخس الثمن إلى ذلك الحد . أريد أعفاء أرمن إدانتهم المحكمة العسكرية في سميرنا (أزمير) » .

ـــ صَدَمَ الاقتراحُ أنوراً في الظاهر ومع ذلك اعتبره شيئاً مسلياً « إنها طريقة مضحكة لطلب الصفح » قال « ومع ذلك وبما أنك وضعت الموضوع بتلك الطريقة ، لا يمكنني أن أرفض الطلب » .

ـــ طلب مساعده رأساً وأبرق إلى سميرنا وحرر الرجال .

ـــ هكذا بالمصادفة تُمنح العدالة وتقّر القرارات بشأن الحياة البشرية في تركيا . لم يصفح أنور عن هؤلاء الرجال بسبب اهتمامه في قضيتهم ، بل كانت ببساطة منّة شخصية لي وللطريقة الغريبة التي طالبته بها بشكل رئيسي . في كل أحاديثي مع وزير الحربية عن الأرمن كان يعالج الموضوع عرضياً . كان يبحث عن « مصير عرق بأكمله » بين قوسين ويتحدث عن مذابح الأطفال غير مكترث كما يتحدث الانسان عن الطقس اليومي بكل بساطة .

طلب مني أنور يوماً أن نقوم برحلة إلى غابة بلغراد ممتطين الأحصنة ، ونظراً لأنني لم أضيع أية فرصة للتأثير عليه قبلت الدعوة . ركبنا السيارة حتى بويوكدارا Buyukdera حيث كان بانتظارنا أربعة خدم مع الأحصنة . عندما كنا نجتاز الغابة الجميلة أصبح أنور أكثر صراحة من ذي قبل . تكلم بحنان عن والده ووالدته ، متى تزوجا . قال أن والده كان في السادسة عشرة من عمره ووالدته في الحادية عشرة . ولد هو عندما أصبحت والدته في سن الخامسة عشرة . لما بدأ يتكلم عن زوجته ـــ الأميرة الامبراطورية ـــ أفشى عن الجانب الرقيق من طبيعته الذي لم أره حتى اليوم . تكلم عن سموها الروحي الذين زين بيته وأسف أن أفكار الديانة الإسلامية في اللياقة والاحتشام تمنعها من الدخول إلى الحياة الاجتماعية . كان يبني في ذلك الوقت قصراً جميلاً جديداً

على البوسفور. حينما اكتمل بناؤه قال أن الأميرة ستدعو زوجتي للفطور. في ذلك الوقت كنا نمرّ بجانب منزل واقطاعية السناتور ابراهام باشا أحد كبار أغنياء الأرمن. كان هذا الرجل الصديق الحميم للسلطان عبد العزيز، وبما أن الانسان في تركيا يرث أصدقاء والده مع الممتلكات لذلك كان وليّ عهد تركيا ابن عبد العزيز يقوم بزيارات اسبوعية للسناتور الشهير. عندما كنا نمرّ من خلال الحديقة لاحظ بسخط وقرف أن الحطابين يقطعون الأشجار فأوقفهم عن ذلك. عندما سمعت فيما بعد أن وزير الحربية اشتري هذه الحديقة، فهمت أسباب غضبه. وبما أن ابراهام باشا كان أرمنياً سنحت لي الفرصة مرة أخرى لأفاتحه بالموضوع.

تكلمت عن المعاملات الفظيعة التي يعاني منها النساء الأرمنيات «ذكرتَ بانكَ تريد أن تحمي النساء والأطفال» قلت له «لكنني أعرف أن أوامرك لا تُطاع».

«هذه القصة لا يمكنها أن تكون صحيحة» قال «لأنه لا يمكنني أن أتصور أن جنياً تركياً يسيء معاملة امرأة حامل».

كان بامكانه أن يغيّر تفكيره إذا قرأ التقارير المفصلة والمحفوظة في أرشيف السفارة الأمريكية.

غيّر الموضوع ثانية وسألني عن سرج حصاني الذي كان من نوع «الجنرال ماك كليلن». جرّبه أنور وأعجب به لدرجة أن استعاره مني بعدئذ وصنع له واحداً يشبهه تماماً مشتملاً حتى على الرقم في الزاوية، ثم تبنّاه لفصيل من فرسانه. أخبرني عن الخط الحديدي الذي يبنيه في فلسطين وكيف أن الوزارة تعمل بجد لاتمامه. أشار أنه توجد الآن فرص كثيرة للمضاربات العقارية. اقترح عليّ شراء الأراضي التي سيرتفع ثمنها مستقبلاً بشكل أكيد. لكنني أصررت على أن أتكلم عن الأرمن، ومع ذلك لم أفلح أكثر من السابق.

«إننا لن نسمح لهم بالتجمع في مناطق يمكنهم فيها أن يتآمروا علينا ويأتونا بالبلى ويساعدوا أعداءنا، لذلك سنعطيهم شققاً جديدة في أماكن أخرى».

كانت هذه النزهة ناجحة من وجهة نظر أنور لدرجة أننا تنزهنا بعد أيام ثانيةً. كان طلعت والدكتور Gates رئيس كلية روبرت كوليج يرافقاننا هذه المرة. سرنا أنور وأنا من الأمام بينما سار مرافقانا في المؤخرة. هؤلاء الحكام الأتراك غيّورون بافراط في الامتيازات الشخصية، وبما أن وزير الحربية هو الأعلى منزلة في الحكومة، لذلك قصد أنور على أن يترك مسافة لائقة بيننا وبين الفارسين الآخرين. كان هذا مضحكاً بعض الشيء، وكنت أظن أن طلعت كان السياسي الأقوى، ولكنه رضخ لهذا التمييز وسمح لحصانه أن يجتاز أنور ويجتازني لمرة واحدة فقط. عَبَّر أنور عن استيائه لهذا الخرق في اللياقة، لذلك وقف طلعت وكبح جماح حصانه ورجع إلى الخلف مذعناً.

« كنت أُظْـهِـرَ سرعة حصاني للدكتور Gates » قالها بلهجة اعتذار.

لكنني كنت مهتماً بأمور أكثر أهمية من قواعد آداب المعاملة بين هذين الضابطين. كنت عازماً على أن أتكلم عن الأرمن، لكنني فشلت هذه المرة أيضاً لأن أنور وجد له مواضيع بحث أكثر امتاعاً.

بدأ يتكلم عن أحصنته. حدثت الآن حادثة أخرى بانت بجلاء عن زئبقية العقل التركي، أي انتقاله السهل من الحديث عن الجرائم البشعة إلى أعمال البرّ الخاصة. قال أنور أن سباق الخيل سيبدأ عن قريب ويأسف لأنه لا يملك فارساً جيداً.

« سأعطيك فارساً انكليزياً » قلت له « هل تقايضني؟. هو أسير حرب هل ستعطيه حريته إذا حلّ الأول؟ ».

« سأعطيه » قال أنور.

هذا الانسان الذي يسمى فيلدز Fields دخل السباق ونال المرتبة الثالثة في الحقيقة، وتسابق من أجل حريته كما قال السيد فيليب. وبما أنه لم يربح في السباق فالوزير لم يكن مجبراً على أي شيء حسب شروط الاتفاق. لكن أنور ذهب إلى أكثر مما هو متوقّع... أعطاه حريته.

ظهر أنور أنه رامٍ خبير في هذه النزهة بالذات. سمعت فجأة صوت اطلاق الرصاص من مسدس في نقطة على الطريق. كان مساعد أنور يتدرب على دريئة قريبة. ترجّل أنور فجأة عن الحصان واستّل مسدسه بسرعة ومد يده بقوة واستقامة إلى الأمام وسدّد.

«هل ترى ذلك الغصن على تلك الشجرة»؟ سألني أنور، وعندما أومأت برأسي مؤكداً أطلق النار ووقع الغصن على الأرض. إن السرعة التي استّل بها مسدسه من جيبه وصوّب وأطلق الرصاص أعطتني تفسيراً واضحاً عن مدى تأثيره على جماعته القراصنة التي كانت تحكم تركيا آنذاك. تدور قصص كثيرة على أن أنور لا يتردد في استعمال هذه الطريقة للاقناع في أوقات حرجة من حياته العملية. لا يمكنني أن أؤكد صحة هذه الأقاويل، لكنني أشهد بالتأكيد على براعته العالية في الرماية.

بدأ طلعت يتسلى بنفس الطريقة أيضاً، وفي النهاية بدأ رجلاً الدولة بالتسابق بمرح وابتهاج كأطفال المدارس عند انصرافهم من مدرستهم.

«هل لديك بطاقتك؟» سأل أنور ثم طلب مني أن أثبّتها على الشجرة التي كانت على بعد خمسين قدماً تقريباً. أطلق أنور الرصاص أولاً. كانت يده ثابتة، نظر باستقامة إلى الهدف وأصابت الرصاصة منتصف البطاقة تماماً. هذا النجاح أغاظ طلعت على الأرجح. صوّبَ طلعت مسدسه، لكن يده الخشنة الغليظة اهتزت قليلاً. لم يكن رياضياً نحيلاً مثل زميله الأصغر سناً. أصاب طلعت أطراف البطاقة عدة مرات، لكنه لم يستطع أن يقلّد أنور في خبرته.

«لو كان الهدف إنساناً» قال التركي الضخم وهو يقفز على حصانه ثانية «لكنت أصبته عدة مرات».

هكذا انتهت محاولاتي المتكررة لاقناع أقوى تركيين في السلطة من أجل مصير أكثر العناصر قيمة في امبراطوريتهم.

لم يكن سعيد حليم باشا الوزير الأول شخصية متنفذة. كان مكتبه الأهم في الامبراطورية إسمياً لكن عملياً كان الوزير الأول يملأ الفراغ فقط. كان سعيد حليم تحت سيطرة طلعت وأنور كما كانا يسيطران على السلطان نفسه.

كان على السفراء أن يفاوضوا تكنيكياً سعيد حليم الذي كان وزيراً للخارجية في نفس الوقت، لكنني اكتشفت في وقت سابق أنني لن أتمكن من إنجاز أي شيء بهذه الطريقة. مع إنني كنت أقوم بزياراتي الأسبوعية الروتينية كل اثنين كياسة، لكنني كنت أفضل التعامل بشكل مباشر مع الرجال الذين يملكون القوة الحقيقية لتقرير كل القضايا. وجّهت انتباه الوزير الأول إلى القضية الأرمنية عدة مرات حتى لا أتهمّ بأنني أهمل مهمتي للتأثير على الحكومة العثمانية. لم يكن سعيد حليم تركياً، بل كان مصرياً وشخصيته مثقفة ومن أصل نبيل. كان يتراءى لي أن موقفه يمكن أن يكون مختلفاً تجاه الشعوب الخاضعة، لكنني كنت مخطئاً لأن الوزير الأول أيضاً كان عدوانياً تجاه الأرمن كطلعت وأنور. اكتشفت بسرعة أن مجرد ذكر الموضوع كان يستفزّه كثيراً. كان واضحاً أنه لا يريد أن تُقلق راحته بمثل تلك المواضيع الكريهة والتافهة. أظهر الوزير الأول موقفه الحقيقي حينما كلّمه الملحق اليوناني عن اضطهادات اليونانيين. قال سعيد حليم أن هذه الشكاوي أضرّت أكثر مما نفعت اليونانيين.

«إننا سنفعل بهم عكس ما يطلبون منا» قال الوزير الأول.

لم يُظهر الوزير الأول المُعيّن أي انتباه جدي لمناشداتي الكثيرة. كان عليّ أن أقوم بمهمة كريهة وهي أخذ إنذار موجه إليه من قبل حكومات بريطانيا وفرنسا وروسيا للرجال الذين يسيّرون المصالح العثمانية وتحميلهم المسؤولية الشخصية للمعاملات الوحشية التي يقومون بها. هذا كان يعني بالطبع أنه في حال انتصار الحلفاء فإنهم سيعاملون الوزير الأول وطلعت وأنور وجمال وزملائهم كمجرمين عاديين. عندما دخلت الغرفة لبحث هذه الرسالة المحرجة مع هذا النبيل من سلالة العائلة المالكة المصرية، جلس هناك كالعادة يلعب بالسبحة بعصبية. تكلم رأساً عن هذه البرقية ووجهه محمّر

سعيد حليم باشا
الوزير الأول
قتل في روما بتاريخ ٦ كانون الأول
١٩٢١

قتل من قبل « كوماندوس العدالة والثأر »
أرشاوير شيراكيان

من الغضب . بدأ نقداً طويلاً وعنيفاً ضد العرق الأرمني كله . أعلن أن « الثوار » الأرمن قتلوا مائة وعشرين ألفاً من الأتراك في وان . إن جملته هذه وبقية كلامه كان سخيفاً لدرجة وجدت نفسي لا شعورياً ادافع بجرأة وحيوية عن هذا العرق المضطهد . أيقظ هذا حنقه أكثر فأكثر وانتقل من موضوع الأرمن وبدأ يشتم بلدي مردداً كلام زملائه أن أسباب آلام الأرمن هي عطف الأمريكيين والدول الأخرى عليهم .

بعد هذه المقابلة لم يبق سعيد حليم في وظيفته كوزير للخارجية وخلفه خليل بك الذي كان المتحدث الرسمي للبرلمان التركي أنذاك . كان خليل بك رجلاً يختلف كلياً عن سلفه . كان أكثر لباقة وأكثر ذكاء وذو نفوذ في الأمور التركية . كان متحدثاً ناعماً أيضاً ولكن بتملّق ، ذو طبع حسن وبدين الجسم ولكنه خالٍ في كل الأحوال من كل العواطف الانسانية كما كان أكثر السياسيين الأتراك باعاً انذاك . يقال عامة أن خليل لم يوافق على المذابح الأرمنية ، لكن منصبه الرسمي اكرهه على القبول بها وحتى ــ كما اكتشفت حديثاً ــ يدافع عنها . استدعاني خليل بك بعد استلامه منصبه الوزاري وقدم لي شرحاً غير واضح عن الوحشيات ضد الأرمن . كانت لي الآن خبرة مع العديد من المسؤولين تجاه هذه الاضطهادات . كان طلعت متعطشاً للدماء بضراوة وأنور يحسب بخبث بينما الوزير الأول كان نكداً سريع الغضب وأما خليل فإنه ينظر إلى فكرة التخلص من هذا العرق بمزاج جيد جداً . بعدما تكلمت عن مجريات الأحداث بكلام فظ على غير عادتي ، لم يخرج كل هذا خليل بيك عن توازنه ولو قليلاً . قال أن القبول بالحقيقة لن يخفف من المذابح وهناك بعض الحقائق يجب أن أتذكرها .

« أوافقك أن الحكومة لها أخطاء خطيرة في معاملتها للأرمن » . قال خليل « لكن الأذى حصل ، ماذا يمكننا أن نعمل من أجلهم الآن ؟ مع ذلك إن كانت هناك أخطاء ، يجب علينا أن نصححها . إنني أتاسف مثلك على الافراط في الاعتداءات التي اقترفت . أتمنى أن أقدم لك رأي الباب العالي . اعترف أن هذا ليس تبريراً ، لكنني أفكر

أن هناك ظروفاً مخففة يجب عليك أن تأخذها بعين الاعتبار قبل أن تحكم على الامبراطورية العثمانية».

بعد ذلك رجع إلى احداث وان مثل كل الباقين ورغبة الأرمن في الاستقلال والدعم الذي قدموه للروس مردداً أفكار زملائه المعروفين التي سمعتها لمرات عديدة في السابق.

«أخبرت وارتكيس Vartkes ـــ النائب في البرلماني العثماني الذي قُتل بعدئذ مع العديد من زعماء الأرمن ـــ أنه إذا كان لدي شعبه طموحات للاستقلال، يجب عليه أن ينتظر للحظة مواتية أكثر، وربما قدر الروس دحر الجيش التركي واحتلال المقاطعات الأرمنية». لماذا لا تنتظرون حتى تسنح لكم مثل تلك الفرصة السعيدة؟» سألت وارتكيس. أنذرته أننا لن نسمح للأرمن بأن يقفزوا على ظهورنا وإذا حاولوا التورط في أعمال عدائية ضد قواتنا، سنبعثر كل الأرمن الذين هم وراء قواتنا وذلك بإرسالهم إلى مناطق آمنة في الجنوب. أعطى أنور كما تعلم إنذاراً مشابهاً إلى بطريرك الأرمن ولكنهم بدأوا بالثورة رغم هذه الانذارات الودية.

سألته عن امكاناته وطرق اسعافهم وأخبرته انه وصلني مبلغ عشرين ألف جنيه استرليني (حوالي مئة ألف دولار) من أمريكا لهذه الغاية». «هذا شأن الحكومة العثمانية أن ترى هؤلاء الناس يستقرون ويؤون ويطعمون حتى يتمكنوا من العناية بأنفسهم» أجاب بتملق. «من الطبيعي أن تقوم الحكومة بواجبها وعدا عن ذلك إن العشرين ألف استرليني التي بحوزتك لا تشكل في الحقيقة أي شيء».

«هذا صحيح» أجبته «إنها كبداية فقط ومتأكد أنني سأحصل على كل المال الذي نحتاجه».

«إنه من رأي أنور باشا» أجاب «ألا يساعد الأجانب الأرمن. لا أقول أن فكرته صحيحة أو لا. إنني أخبرك فقط. يقول أنور أن الأرمن مثاليون وفي اللحظة التي

يقترب فيها الأجانب لمساعدتهم سيشجّعون في طموحاتهم القومية. أنه عازم بكل ما في الكلمة من معنى على قطع كل العلاقات بين الأرمن والأجانب إلى الأبد».

«هل هذه هي الطريقة التي يمكن لأنور أن يوقف أية عملية من قبلهم؟» سألته.

ابتسم خليل بكل طيبة إلى هذا السؤال الموجه وأجاب: «ليس للأرمن أية قدرة للعمليات بعد الآن على الاطلاق».

قتل حتى هذا الوقت حوالي نصف مليون من الأرمن. كان ردّ خليل السريع والذكي يحمل في طياته فضيلة واحدة فقط، كانت كل تعابيره في هذا اللقاء تفتقر إلى ... الحقيقة.

ـــ «كم عدد الأرمن الذين هم بحاجة للمساعدة في الجنوب؟» سألته.
ـــ «لا أعلم، حتى لا يمكنني أن أعطيك رقماً تقريبياً».
ـــ «هل هناك عدة كمئات الآلاف منهم؟».
ـــ «أظن ذلك» اعترف خليل «لكنني لا أقدر أن أقول كم مئة ألف، إن أعداداً كبيرة منهم عانوا» أضاف «لسبب بسيط أن أنور لم يَسْتَغْنِ عن القوات للدفاع عنهم. إن بعض القوات النظامية رافقتهم بالفعل وهؤلاء تصرفوا بشكل جيد حتى أن أربعين منهم فقدوا حياتهم للدفاع عنهم. كان علينا أن نُرجع أكثر الدرك إلى الجيش للخدمة ونضع بدلاً منهم آخرين لمرافقة الأرمن. هؤلاء الدرك ارتكبوا في الحقيقة تجاوزات تبعث على الأسى».
ـــ «إن أتراكاً كثيرين لا يوافقون على هذه التدابير» قلت.
ـــ «لا أنكر هذا» أجاب خليل بمجاملة زائدة وهو يسحب نفسه من هذه القضية.

كان أنور وخليل والباقون مصرين دائماً على النقطة التي يبرزونها ... يجب على الأجانب ألا يساعدوا الأرمن. بعد أيام من هذه الزيارة جاء وكيل الوزارة إلى السفارة

رئيس المجلس النيابي التركي
خليل بيك

الأمريكية ليعطيني رسالة من جمال وأنور . جمال ، هذا الذي كانت له السلطة القضائية على المسيحيين في سورية ، انزعج كثيراً من القناصل الأمريكيين بسبب إبداء الاهتمام بالأرمن ، طلب مني أن آمر هؤلاء القناصل ليكفّوا عن إشغال أنفسهم في المسائل الأرمنية . «لم يفّرق جمال بين البرىء والمذنب» قال الساعي «لذلك كان عليه أن يعاقب الجميع» .

بعد عدة أيام اشتكى خليل إليّ أن قناصلي يرسلون الحقائق عن الأرمن إلى أمريكا وأن الحكومة تصرّ على إيقافهم .

في الحقيقة انني شخصياً كنت أرسل أكثر تلك المعلومات ولم أتوقف عن ذلك أبداً .

الفصـــل الســادس

«لـن أفعـل شيئـاً لصالــح الأرمــن»

قال السفيـر الألمـانـي

ليس هناك جانب ــ كما أظن ــ من القضية الأرمنية قد أثار الاهتمام الكبير مثل التساؤلات التالية: هل كان للألمان أي دور في هذه القضية؟ إلى أي حد كان القيصر مسؤولاً لذبح هذه الأمة؟ هل اشترك الألمان في الأمر أم سهّلوا لذلك فقط؟ أم اعترضوا على هذه الاضطهادات. كانت ألمانيا مسؤولة في السنوات الأربع الأخيرة عن أحلك الصفحات العديدة في التاريخ. أعتقد أن أكثر الناس سيكتشفون بعض الشبه بين تعليقات هؤلاء ــ رؤساء العصابات الأتراك ــ وفلسفة الحرب الألمانية. اسمحوا لي أن أعيد بعض التعابير الخاصة التي استعملها أنور وبقية زعماء الأتراك حينما تباحثوا معي عن المذابح الأرمنية. «إن الأرمن جلبوا هذا المصير على أنفسهم» «انذرناهم بوضوح بما

سيحدث لهم»، «كنا نناضل من أجل وجودنا القومي»، «كنا مبرئين من الالتجاء لأية وسيلة توصلنا إلى هذه النهاية»، ليس لدينا وقت كاف لنفّرق بين البريء والمجرم»، «إن الشيء الوحيد في تفكيرنا هو أن ننتصر في الحرب».

هذه التعابير كلها لها نفس الرنين أليس كذلك؟ طبعاً يمكنني إعادة كتابة كل هذه المقابلات مع أنور، واستعمال كلمة بلجيكا بدلاً من أرمينيا وأضع كل هذه الكلمات في فم جنرال ألماني بدلاً من أنور، وتكون لدينا صورة شبه كاملة عن موقف الألمان تجاه الشعوب الخاضعة. لكن تعاليم البروسيين تغوص أكثر من هذا. كانت هناك ميّزة واحدة بالنسبة للأحداث الأرمنية. لقرون عديدة عامل الأتراك الأرمن وبقية الشعوب المحتلة بالقوة وبربرية لا يتخيلها العقل البشري. لكن طرق معاملاتهم كانت فجّة وخرقاء وغير علمية. ضربوا دماغ الأرمني بالهراوة وهذه الطريقة خير شاهد على الطرق الغليظة والبدائية التي طبقوها ضد القضية الأرمنية. فهموا القتل بمعناه البدائي وليس القتل كفن رفيع.

لكن أظهرت الأحداث الأرمنية عام ١٩١٥ ــ ١٩١٦ عقلية جديدة بالكامل. هذا المفهوم الجديد كان التهجير بالقوة[1]. اخترع الأتراك طرقاً لا تحصى لتعذيب مواطنيهم المسيحيين جسمياً في مدى خمسمائة عام، لكن لم يفكروا أبداً بتهجيرهم من بيوتهم التي سكنوها لآلاف السنين وإرسالهم إلى الصحراء على بعد عدة مئات من الكيلومترات. من أين أتى الأتراك بهذه الفكرة؟ شرحت سابقاً أنه في عام ١٩١٤ قبل الحرب الأوروبية بقليل هَـجّـرتْ الحكومة حوالي مائة ألف يوناني من بيوتهم التاريخية على الساحل الآسيوي إلى بعض جزر البحر الإيجي. ذكرت أيضاً أن الأدميرال أوزيدوم (Usedom) أحد أكبر الخبراء البحريين الألمان في تركيا أخبرني أن الألمان اقترحوا فكرة التهجير على الأتراك وبذلك نرى أن فكرة التهجير الجماعي هذه كانت ألمانية على وجه

---

(١) يقول المثل العربي «ما تزرعه تحصده» وهذا حال الأتراك الآن مع البلغار بعد حكمهم الدموي الطويل وبناء تلال من جماجم البلغار ــ (المترجم).

الحصر في العصور الحديثة. كل انسان يقرأ آداب «ألمانيا العظمى» يصادف هذه الفكرة باستمرار. هؤلاء المتحمسون لبناء عالم ألماني متميّز خططوا عمداً كجزء من برنامجهم طرد الفرنسيين من بعض أقسام فرنسا والبلجيكيين من بلجيكا والبولونيين من بولونيا والشعوب السلافية من روسيا وتهجير شعوب أخرى سكنت أوطانها لآلاف السنين وتوطين الأراضي الخالية من سكانها بألمان أشداء مخلصين. ليس من الضروري أن نظهر أن الشعب الألماني لا يؤيد هذه السياسة، ومع ذلك كانت الدولة الألمانية تنفذ بالفعل هذه السياسة في السنوات الأربع الأخيرة. لا نعرف بالضبط عدد البلجيكيين والفرنسيين الذين هُجرّوا من أوطانهم ولكنهم في حقيقة الأمر يعدّون بعدة آلاف بالتأكيد. قتلت دولة (النمسا ــ المجر) أكثر سكان الصرب وجمعت الآلاف من أطفالهم وأرسلتهم إلى مناطقها لتربيتهم ولإعادة تأهيلهم كمواطنين مخلصين للامبراطورية. لن نعلم بعدد السكان الذين أفنوا إلا بعد انتهاء هذه الحرب. لكن من المؤكد أن هذه الاضطهادات كانت واسعة جداً.

أيد بعض الكتاب الألمان تطبيق هذه السياسة على الأرمن. يقول بول روربخ (Paul Rohrbach) حسب معلومات الجريدة الباريسية Le Temps «جرى في برلين قبل مدة مؤتمر أوصى بأنه يجب تفريغ أرمينيا من الأرمن وذلك ببعثرتهم إلى بلاد ما بين النهرين وعلى الأتراك أن يملأوا هذه المناطق حتى تتحرر أرمينيا بالكامل من النفوذ الروسي، وتزّود بلاد ما بين النهرين بمزارعين هي بأمس الحاجة إليهم. إن غاية كل هذا واضح لا لبس فيه. كانت ألمانيا تبني الخط الحديدي إلى بغداد عن طريق صحراء ما بين النهرين. هذه تفاصيل حيّة للحلم الألماني القديم ــ الجديد لتأسيس الامبراطورية الألمانية الجديدة والقوية الممتدة من هامبورغ وحتى الخليج العربي. لن ينجح مشروع كهذا أبداً إلا عن طريق سكان نامين وصناعيين جداً لتغذيته. لن يكون الأتراك الكسالي والبليدين مفيدين في مشروع كهذا، لذلك يجب اعتقال هؤلاء الناس الذين عاشوا في أوطانهم لقرون طويلة وتسفيرهم بوحشية إلى هذه الصحراء الموحشة حسب تصورات سياسة

الدولة الألمانية العليا. كانت هذه الأفكار البان ــ جرمانيزم (Pan Germanism) تزرع بشكل علني لعدة سنوات، حتى أنهم كانوا يحاضرون عن هذا الموضوع في الشرق. «أذكر أنني استمعت إلى محاضرة بروفيسور ألماني مشهور» قال لي أرمني «كانت فكرته الرئيسية أن الأتراك خلال تاريخهم أخطأوا خطأً كبيراً بسبب لين معاملتهم للسكان غير الأتراك. إن الطريقة الوحيدة لضمان الرخاء الاقتصادي في الامبراطورية العثمانية هي العمل المجرد عن العاطفة تجاه كل القوميات والعروق الخاضعة لتركيا، والذين لا يلتقون مع السياسة والخطط التركية».

إن (ألبان جرمانيين) يضربون أرقاماً قياسية في قضية أرمينيا. سأكتفي بتسجيل كلمات فردريخ ناومان (Frederich Nauman) صاحب كتاب (Mittel Europa أوروبا الوسطى) لعله من أقدر دعاة أفكار البان جرمانيزم. بدأ ناومان هذا حياته كرجل دين مسيحي يبحث بشكل مفصّل عن المذابح الأرمنية في ١٨٩٥ ــ ١٨٩٦ في كتابه عن آسيا. سأستشهد فقط ببعض المقاطع لأبين موقف سياسة الدولة الألمانية من هذه الأعمال الشائنة. «إذا أخذنا بعين الاعتبار المذابح الوحشية لثمانين أو حتى مائة ألف أرمني فقط، لا يمكننا إلا أن نفكر تفكيراً واحداً فقط وهو أنه يجب علينا إدانة المجرمين والمثيرين على ذلك بغضب وعنف. ارتكب هؤلاء مجازر على أعداد كبيرة من الجماهير بأبشع الطرق وحتى أفظع من جرائم شارلمان على السكسون. إن التعذيب الذي وصفه الدكتور ليبسيوس يفوق على كل شيء عرفناه. ماذا يمنعنا عندئذٍ لنتهجّم على التركي ونقول له «أذهب يا حقير». شيء واحد يمنعنا عن ذلك، لأن التركي سيجيب: «إني أناضل من أجل وجودي أيضاً». نُصَدِّقهم بغض النظر عن النقمة والسخط الذي يثيره فينا الدين الإسلامي، البربري والدموي[٢]. نصدقهم لأن الأتراك يدافعون عن أنفسهم شرعاً وإننا نرى قبل كل شيء في المسألة والمذابح الأرمنية مسألة سياسية تركية داخلية بحتة. إن الحدث يشير إلى أن امبراطورية تحتضر وهذه الامبراطورية لن تسمح

---

(٢) هل ننتظر من النازيين احترام الديانات السماوية، وتاريخهم حافل كالأتراك بدمار الشعوب ــ (المترجم).

حتى لنفسها أن تموت بدون محاولة أخيرة للخلاص، ولو بإراقة الدماء. كل القوى العظمى ماعدا ألمانيا تبنت سياسة قلب الأوضاع في تركيا، ووفقاً لهذا يطلبون لهذه الشعوب المختلة أشياء مثل حقوق الانسان أو الانسانية أو الحضارة أو الحرية السياسية، أي بكلمة أخرى يطلبون شيئاً ليجعلوا منهم مواطنين مساوين للأتراك. كما أن الدولة الرومانية الاستبدادية لم تتحمل ولو قليلاً ديانة الناصري[٣]، كذلك هو الحال مع الامبراطورية العثمانية التي هي الوريثة السياسية الحقيقية للدولة الرومانية الشرقية. تركيا أيضاً لا يمكنها أن تتحمل أي تمثيل للمسيحية الحرة بين رعاياها. إن الخطر بالنسبة لتركيا من القضية الأرمنية هو خوفها من الدمار الشامل. لذلك تلجأ إلى أعمال بربرية آسيوية. دمرت تركيا الأرمن لدرجة، إنهم لن يتمكنوا من إظهار قوتهم السياسية لفترة غير وجيزة. عمل مفزع بدون شك وسببه اليأس السياسي، مخجل في تفاصيله ولكنه قطعة من التاريخ السياسي بالطريقة الآسيوية... وعلى الرغم من شعور الاستياء والغضب الذي يشعر به المسيحيون الألمان ضد هذه الحقائق المخجلة، لا يمكنهم أن يفعلوا أي شيء غير مساعدتهم بشفاء جراحهم قدر الامكان وترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي بعدئذٍ. إن سياستنا الشرقية مقررة منذ زمن بعيد، ونحن ننتمي إلى الجماعات الذين يحمون تركيا. هذه الحقيقة هي التي تنظم تصرفاتنا. إننا لا نمنع أي مسيحي متحمس للعناية بضحايا هذه الجرائم والاعتناء بالكبار وتربية الصغار. ليبارك الله هذه الأعمال الحسنة قبل كل أعمال الايمان الأخرى. لكن يجب علينا أن نعلم أن أعمال البر هذه يجب ألا تأخذ طابعاً سياسياً يحبط سياستنا الألمانية. إن الأممي الذي ينتمي إلى مدرسة الفكر الانكليزي يمكنه أن يسير مع الأرمن. إن القومي الذي ليس بنيته أن يضحي بمستقبل ألمانيا من أجل إنكلترا، يجب عليه أن يتبع الطريق التي رسمها بسمارك في مسائل السياسة الخارجية حتى ولو كان بدون رحمة في آرائه السياسية القومية. هذا هو السبب الوجداني العميق الذي يفرض علينا نحن رجال الدولة أن نكون غير مبالين لعذاب

---

(٣) السيد المسيح ــ (المترجم).

الشعوب المسيحية في تركيا، حتى ولو كانت مؤلمة لشعورنا الانساني ... هذا هو واجبنا الذي علينا أن نميّزه ونعترف به أمام الله والانسان. إذا كنا نؤمن بديمومة الدولة التركية نفعل كل هذا فقط لمصلحتنا الشخصية لأن الشيء الوحيد في فكرنا هو ... مستقبلنا العظيم. في كفة واحدة لنا واجبات كأمة وفي كفة أخرى لنا واجبات كرجال. هناك أوقات حينما تتعارض الواجبات وتتصارع فحينئذ نلجأ إلى الحل الوسط. إن ذلك صحيح من زاوية النظر الانسانية لكن بالكاد يكون صحيحاً من الناحية الاخلاقية. ففي هذه الحالة كما في كل الحالات المتشابهة، علينا ألا نتردد. اختار وليم الثاني وأصبح صديق السلطان لأنه فكّر في وجود ألمانيا أكبر وأعظم شأناً».

هكذا كانت فلسفة الدولة الألمانية التي طبقت على الأرمن وكانت لي أيضاً فرصة مراقبتها وهي تطبق. حالما بدأت التقارير المبكرة تصل إلى القسطنطينية، تراءى لي أن أكثر طريقة عملية لإيقاف هذه الاعتداءات الوحشية أن يقدم ممثلو الهيئات الدبلوماسية لكل الدول إنذاراً مشتركاً للحكومة العثمانية. لجأت إلى وانغنهايم (Wangenheim) بشأن هذا الموضوع في نهاية شهر آذار، الذي أظهر رأساً غضبه وكراهيته للأرمن. بدأ يتهمهم بتعابير غير متّزنة مثل طلعت وأنور وأصر على اعتبار حادثة وان عصياناً مسلّحاً. كان الأرمن في نظره ونظرهم حشرات خائنة.

«سأساعد الصهاينة» قال «لكنني لن أفعل شيئاً من أجل الأرمن أبداً». زعم وانغنهايم أن القضية الأرمنية تحرك مشاعر الولايات المتحدة بشكل خاص. إن توسطي لديهم بشكل مستمر خلق في الظاهر انطباعاً في هذا العقل الجرماني أن أية رحمة يظهرونها لهذا الشعب سيكون تنازلاً للحكومة الأمريكية. لكنه في تلك اللحظة لم يكن ميالاً إلى فعل أي شيء لإرضاء الشعب الأمريكي.

«الولايات المتحدة في الظاهر هي الدولة الوحيدة التي تهتم كثيراً بالأرمن» قال «إن تبشيرياتكم أصدقاء لهم وشعبكم نَصَّبَ نفسه وصياً عليهم، فمسألة مساعدة الأرمن برمتها إذاً شأن أمريكي. كيف تنتظرون مني أن أفعل شيئاً والولايات المتحدة تبيع

الأسلحة والذخائر إلى أعداء ألمانيا؟ طالما أن حكومتكم تساعد على استمرار هذا الوضع، لا يمكننا أن نفعل شيئاً للأرمن».

من المحتمل أنّ لا أحد غير عالم منطق ألماني يمكنه أن يكتشف العلاقة بين مبيعات أسلحتنا للحلفاء وبين هجمات الأتراك على مئات الآلاف من النساء والأطفال والشيوخ الأرمن. تكلمت معه كثيراً ولكن بدون جدوى. نشأ فتور بعدئذٍ بيننا وانقطعت الزيارات المتبادلة لعدة أسابيع.

كان هناك بعض الألمان المتنفذين في القسطنطينية الذين لم يقبلوا بوجهة نظر «وانغنهايم». أشرت سابقاً إلى بول وايتس (Paul Weitz) مراسل جريدة (Frankfurter Zeitung) لمدة ثلاثين سنة، الذي يعرف أكثر من أي ألماني عن شؤون الشرق الأوسط. مع أن وانغنهايم كان يطلب المعلومات من وايتس طوال المدة، ولكنه لم يكن يأخذ بنصيحته دائماً. لم يقبل وايتس الموقف الامبراطوري التقليدي تجاه أرمينيا، لأنه كان يؤمن أن رفض التدخل يؤذي بسمعة وطنه إلى الأبد. كان وايتس يقدم وجهة النظر هذه إلى وانغنهايم لكنه لم يفلح إلا قليلاً. تكلم واتيس عن هذا الموضوع معي في شهر كانون الثاني عام ١٩١٦ قبل عدة أسابيع من مغادرتي تركيا. أَسْتَشْهِدُ بكلماته عن هذا الموضوع:

ـــ «أتذكر أنك أخبرتني في البداية» قال وايتس «عن الخطأ الكبير الذي تقترفه ألمانيا في المسألة الأرمنية. وافقتك آنذاك تماماً، ولكن عندما ألححتُ على وانغنهايم في هذا الموضوع قذفني مرتين خارج الغرفة».

ـــ عارض ألماني آخر هذه الوحشيات يدعى نيوراث (Neurath) وهو مستشار السفارة الألمانية. إن سخطه وصل إلى حَدّ أن لغته أصبحت غير دبلوماسية تقريباً مع أنور وطلعت. «لم أقدر أن أزحزحهما عن نيتهما لمتابعة هذه المذابح منذ البدء» قال نيوراث «وليس بإمكان أي ألماني بالطبع أن يؤثر كثيراً على الحكومة التركية، بينما السفير الألماني يرفض التدخل».

مع مرور الوقت ظهر جلياً أكثر أنه ليس لدى وانغنهايم الرغبة في وقف التهجير القسري. لكنه في الظاهر، ومع ذلك كله، رغب في إعادة العلاقات الودية معي وأرسل بسرعة جهة ثالثة للتوسط. لم أعرف كم من الوقت كان يمكن أن يدوم هذا النفور لو لم يصبه مرض جسمي.

مات في شهر حزيران الملازم الأول والملحق العسكري الألماني لايبزيغ Leipzig في ظروف غامضة ومؤسفة جداً في محطة قطار في لولا بورغاس. قُتل بمسدس. قالت رواية أنه قُتل برصاصة طائشة ورواية أخرى أن الكولونيل انتحر ورواية ثالثة أن الأتراك قتلوه خطأً عوضاً عن ليمان فون ساندرز (LimanVon Sanders). كان لايبزيغ من أقرب أصدقاء وانغنهايم في أيام شبابهما. كانا ضابطين في نفس الفوج، ولم يتفارقا في القسطنطينية تقريباً. زرت تواً السفير لتعزيته. رأيته في حالة اكتئاب وهمّ. أخبرني أنه يعاني من قلبه وأنه متعب جداً ويفكر بإجازة مرضية لأسابيع قليلة. كنت أعلم أن وفاة صديقه لم يكن المسيطر على فكره فحسب بل كانت التبشيريات الألمانية تُمطر ألمانيا بغزارة بتقارير عن الأرمن وتطلب من الحكومة إيقاف المجازر. ومع ذلك كله أعطى وانغنهايم العصبيّ والمتعب دلالات كثيرة أنه لا يزال الألماني القاسي المشرّب بالروح العسكرية الألمانية. بعد عدة أيام حينما ردّ على زيارتي سألني:

«أين جيش كيتشنر Kitchner؟ نحن نريد إرجاع بلجيكا» وتابع السفير «ترغب ألمانيا ببناء أسطول ضخم من الغواصات ذات دائرة واسعة للعمليات الحربية. سنتمكن في الحرب القادمة من محاصرة إنكلترا كاملة، ولذلك لا نحتاج لبلجيكا من أجل جعلها قاعدة لغواصاتنا. سنرجع بلجيكا للبلجيكيين ونأخذ الكونغو بدلاً منها».

توسطت مرة ثانية لصالح المسيحيين المضطهدين في تركيا.

«الأرمن» قال وانغنهايم «ظهروا أنهم أعداء الأتراك. واضح جداً ان الشعبين لا يمكنهما أن يتعايشا في نفس البلد. يجب على الأمريكيين نقل بعض الأرمن إلى الولايات المتحدة ونحن سنرسل بعضهم إلى بولونيا ونسكن المقاطعات الأرمنية باليهود

البولونيين إذا وعدونا إنهم سيتخلون عن خططهم الصهيونية». رفض السفير مساعدة الأرمن هذه المرة أيضاً، مع انني تكلمت معه بشكل جدّي وحماسي.

قدم وانغنهايم احتجاجاً رسمياً في ٤ تموز إلى الحكومة التركية. لم يتكلم مع أنور أو طلعت، الرجلين المتنفذين، بل مع الوزير الأول الذي كان ظلاً فقط. كانت الفكرة الأساسية من هذا الاحتجاج وضع الألمان في الصورة فقط. كان النفاق في إصدار هذا الاحتجاج واضحاً لي وللآخرين، لأنه في الدقيقة التي قدم فيها الاحتجاج كان وانغنهايم يشرح لي أسباب عدم رغبة ألمانيا القيام بجهد فاعل وضغط لإنهاء هذه المجازر. بعد تلك المقابلة استلم أمر إجازته وسافر إلى ألمانيا. مع أن وانغنهايم كان قاسياً وصلب الفؤاد لكنه لم يكن عنيداً وحقوداً تجاه الأرمن كالملحق البحري الألماني في القسطنطينية هومان (Humann). كان هذا يعتبر شخصاً متنفذاً جداً. قال لي دبلوماسي ألماني مرة، أن هومان هذا تركي أكثر من أنور وطلعت. حاولت تجنيد ضغطي عليه بالرغم من سمعته هذه. لجأت إليه وناشدته بشكل خاص لأنه كان صديق أنور. كان هومان همزة وصل مهمة بين السفارة الألمانية والسلطات العسكرية التركية. كان المبعوث الخاص للقيصر وعلى اتصال دائم مع برلين ويعكس بدون شك موقف القوى الحاكمة في ألمانيا. تكلم عن القضية الأرمنية بصراحة ووحشية تامّين. «عشت أكثر حياتي في تركيا» قال «وأعرف الأرمن، وأعرف أن الأرمن والأتراك لا يمكنهما أن يتعايشا في هذا البلد. يجب على عرق واحد منهما أن يذهب. لا ألوم الأتراك على ما يفعلون بالأرمن. أظن أنهم مبررون بالكامل. الأمة الأضعف يجب أن تخضع وتموت. يريد الأرمن تقطيع أوصال تركيا. هم أعداء الأتراك والألمان في هذه الحرب ولذلك لا يحق لهم أن يحيوا هنا. أظن أن وانغنهايم ذهب بعيداً بتقديم احتجاج للأتراك. إنني شخصياً لن أعمل هذا على الأقل».

عَبَّرتُ عن مخاوفي من تلك الأفكار العاطفية لكن تابع هومان وهو يسبّ الشعب الأرمني:

«إنها مسألة أمن» أجاب «على الأتراك أن يحموا أنفسهم ومن وجهة النظر هذه مُبررون كاملاً في كل ما يعملون. لماذا؟ لأننا وجدنا سبعة آلاف بندقية تخص الأرمن في كاديكوي. أراد أنور في البدء أن يعامل الأرمن باعتدال تام، وأصرّ قبل أربعة أشهر على إعطائهم فرصة أخرى ليظهروا ولائهم. كان عليه أن يذعن للجيش الذي كان يصرّ دائماً على حماية مؤخرته بعد ما فعلوا به في وان. أُقرَّت لجنة الاتحاد والترقي التهجير ورضي أنور على مضض. كل الأرمن يعملون لدمار قوة تركيا، لذلك فالشيء الوحيد الباقي هو تهجيرهم. حقاً، أنور إنسان طيب القلب جداً، حتى أنه عاجز عن إيذاء ذبابة. لكن عندما يصل الأمر إلى الدفاع عن فكرة يؤمن بها، يتصرف بحزم. علاوة على ذلك يجب على الأتراك أن يتخلصوا من الأرمن وذلك بسبب الدفاع عن النفس. فاللجنة قوية فقط في القسطنطينية وفي بعض المدن الكبيرة الأخرى. أكثر الشعب في كل مكان هم «أتراك قديمون» وهؤلاء كلهم أناس متعصبون لا يؤيدون الحكومة الحالية، ولذلك ستعمل اللجنة كل ما بوسعها للدفاع عن نفسها. لكن لا تظن أن أي ضرر سيصيب بقية المسيحيين. ليس من الصعب على تركي أن يلتقط ثلاثة من الأرمن من بين ألف تركي.

لم يكن هومان آخر ألماني عبّر عن هذه الفكرة.

بدأت تصلني تهديدات من مصادر مختلفة بسبب «تدخلي» من أجل الأرمن، وبدأت أظهر بمظهر غير شعبي أمام المسؤولين الألمان. في يوم من أيام تشرين الأول وضع نيوراث أمامي برقية استلمها تواً من مكتب وزارة الخارجية الألمانية. كانت هذه البرقية تحتوي على معلومات من خطاب ايرل كرو (Earl Crew) وايرل كرومر (Earl Croumer) في مجلس اللوردات البريطاني. كان هذان اللوردان يضعان المسؤولية على الألمان وأعلنا أنهما تلقيا المعلومات من مشاهد أمريكي. تشير البرقية أيضاً إلى مقال في جريدة (Westminister Gazette) التي تقول أن القناصل الألمان كانوا يحرّضون وحتى يقودون الهجمات في أمكنة معينة، وذكر بشكل خاص القنصل الألماني في حلب رسلر

(Resler) . قال نيوراث أن حكومته طلبت منه أن يحصل على إنكار لهذه الاتهامات من السفير الأمريكي في القسطنطينية . رفضت النكران قائلاً أنه لم أشعر أنني استُدْعِيتُ رسمياً من قبل أية جهة لأشهد أن كانت تركيا أو ألمانيا ملامة على هذه الجرائم .

كانت هناك إدانة لسفير الولايات المتحدة في كل مكان في الاجواء الديبلوماسية بأنه المسؤول الأول عن الدعاية الواسعة للمجازر الأرمنية في أوروبا وأمريكا .

لم أكن أتردد في التأكيد إنهم محقون في ذلك . زار ابني هنري مورغنطاو شبه جزيرة غاليبولي في شهر كانون الثاني ، حيث استضافه الجنرال ليمان فون ساندرز وضباط ألمان آخرون . لم تكن قدماه وطأتا القيادة الألمانية بعد ، حينما اقترب منه ضابط ألماني وقال :

ـــ « إن المقالات التي يكتبها والدك في الجرائد الأمريكية عن الأرمن شيقة » .

ـــ « لم يكتب والدي مقالات » رد عليه ابني .

ـــ « عدم وجود التوقيع لا يعني أنه لم يكتبها » .

ـــ تكلم فون ساندرز أيضاً عن هذا الموضوع . « يخطئ والدك خطأ كبيراً » قال « لفضح الحقائق عن أعمال الأتراك ضد الأرمن ليس ذلك من شأنه فعلاً » .

ـــ قرر الألمان في الظاهر اللجوء إلى التهديدات لأن التلميحات من هذا النوع لم تؤثر عليّ . جاء إلى القسطنطينية من برلين في أوائل الخريف شخص يدعى الدكتور نوسيغ (Dr. Nossig) . كان الدكتور نوسيغ يهودياً ألمانياً . جاء إلى تركيا ليعمل في الظاهر ضد الصهيونيين . بعد أن تكلم معي دقائق معدودة أكتشفت أنه عميل سياسي ألماني . جاء لرؤيتي مرتين . في المرة الثانية جرّ الكرسي بقربي وبدأ يتكلم بطريقة ودية تنمّ عن الثقة بعد أن كانت محادثاته في المرة السابقة غامضة المعنى والهدف . « أرجو ألا أضايقك إذا أعطيتك نصيحة صغيرة . إنك نشيط جداً في اهتماماتك الأرمنية ولا أظنك تتصور أنك بدأت تصبح شخصاً غير مرغوب فيه عند المسؤولين هنا . يجب عليّ أن

أخبرك أن الحكومة التركية تعتزم اقتراح استدعائك إلى الوطن وان احتجاجاتك لصالح الأرمن ستكون بدون فائدة . لن يتدخل الألمان من أجلهم وانك تضيع فرصتك في الحياة السياسية وتخاطر بمهنتك لتنتهي بشكل مذل » .

« هل تعطيني هذه النصيحة لأنك مهتمّ حقاً بمصلحتي الشخصية ؟ » سألته « ارجع إذن إلى السفارة الألمانية وأخبر وانغنهايم ليتابع ويعمل لاستدعائي وانه لا يمكنني أن أتصور قضية أسمى من هذه إذا قدّر لي الاستشهاد وليس هناك شرف أكبر من أن يستدعوني لأنني وضعت كل الضغوط لإنقاذ حياة مئات الألوف من المسيحيين في تركيا » .

خرج الدكتور نوسيغ من مكتبي مسرعاً ولم أره منذ ذلك الوقت .

عندما التقيت بأنور في مرة ثانية قلت له أن هناك إشاعات تقول أن الحكومة العثمانية ستطلب من حكومتي باستدعائي وكان ملفتاً للنظر تأكيده أن القصة بأكملها كذب وتلفيق . « لن نكون في وضع لنرتكب خطأً سخيفاً كهذا » قال ، وبذلك لم يبق لديّ أدنى شك أن محاولة إرهابي دبرت في السفارة الألمانية .

رجع وانغنهايم إلى القسطنطينية في أوائل شهر تشرين الأول . صُعِقْتُ من التغييرات التي طرأت على هذا الانسان . كان وجهه يرتعش بشكل دائم تقريباً ووضع عصبة سوداء على عينه اليمنى وظهر في حالة عصبية وكئيبة بشكل غير طبيعي . قال أنه لم ينل إلا قسطاً قليلاً من الراحة « أنه كان مجبراً على أن يمضي أكثر وقته في برلين وهو يعمل . التقيت به بعد أيام قليلة على طريقي إلى هاسيكوي . قال أنه ذاهب إلى السفارة الأمريكية . مشيناً سوية باتجاهها . قيل لي مؤخراً أن طلعت ينوي ترحيل كل الأرمن الباقين في تركيا ، وهذا استحثني على محاولة أخيرة للتوسط عند الرجل الوحيد الذي له القوة على إيقاف هذه الفظائع . صعدنا إلى الطابق الثاني حيث يمكننا أن نكون وحيدين ولا يزعجنا أحد هناك . كان لنا آخر محادثة عن هذا الموضوع دام أكثر من ساعة ونحن نشرب الشاي .

«أبرقتْ إليَّ برلين» قال وانغنهايم «إن سكرتير دولتكم قال لهم أن المجازر الأرمنية زادت منذ دخول بلغاريا الحرب إلى جانبكم».

«لا، لم أبرق عن هذا» أجبته «أعترف بأنني أرسلت كمية كبيرة من المعلومات إلى واشنطن. أرسلت نسخاً عن كل تقرير وكل جملة إلى إدارة الدولة وانها في مأمن الآن. وهكذا مهما حدث لي فالدليل اكتمل والشعب الأمريكي غير مُجْبَر على كلامي الشهفي من أجل الاستعلام. إن كلامك هذا غير دقيق لأنني أخبرت لانسيغ (Lansig) أن أية فرصة للضغط من قبل البلغار على الأتراك لإيقاف المجازر ضاعت، لأن بلغاريا أصبحت حليفة تركيا الآن».

تباحثنا عن التهجير مرة ثانية.

«ألمانيا ليست مسؤولة عن هذا» قال وانغنهايم.

«يمكنك تأكيد ذلك حتى النهاية» أجبت «لكن لن يصدقك أحد. إن العالم سيحمّل دائماً ألمانيا المسؤولية. إن خطيئة هذه الجرائم سترثها أجيالكم إلى الأبد. علمت أنك قدمت ورقة احتجاج إلى الحكومة التركية، ولكن ما نفع ذلك؟ تدرك جيداً أكثر مني أن هذا الاحتجاج لن يؤثر في شيء. لا أدّعي أن ألمانيا هي المسؤولة عن هذه المذابح بمعنى تحريضها على التنفيذ، لكن هي مسؤولة بمعنى أنه كانت لديها القوة لإيقافها ولم تفعل ذلك. ليست أمريكا واعداؤكم اليوم هم وحدهم الذين يعتبرونكم المسؤولين على ذلك فقط، بل سيحاسبكم الشعب الألماني في يوم من الأيام. إنكم شعب مسيحي وسيأتي الوقت الذي يدرك فيه شعبكم أنكم سمحتم للأتراك بإفناء شعب مسيحي آخر. هل تعتقد أنه يمكنك أن تخفي مثل هذه الوحشيات الجهنمية كسر إلى الأبد؟ إنك تفكر كالنعامة البلهاء وتنتظر من بقية العالم أن يفعلوا نفس الشيء. إن جرائم كهذه تصرخ عالياً حتى السماء. هل كنت تظن أنني إن سمعت عن أشياء كهذه يمكن أن أخفيها ولا أعلم عنها حكومتي؟ لا تنس أن التبشيريات الألمانية خاصة والأمريكية هي التي ترسل لي معلومات دقيقة عن الأرمن».

«كل شيء تقوله يمكن أن يكون حقيقة» أجاب السفير الألماني «لكن المسألة الكبرى التي تجابهنا هي الانتصار في هذه الحرب. حَسَمَتْ تركيا مسائلها مع أعدائها الخارجيين عند غاليبولي والدردنيل والآن تحاول ترتيب شؤونها الداخلية. إنهم لا يزالون فزعين من احتمال فرض الاستسلام عليهم ثانية. قبل أن يوضعوا مرة ثانية تحت هذا الكبح، ينوون ترتيب أمورهم الداخلية ولا يتركون ولو فرصة صغيرة للتدخل الخارجي. أخبرني طلعت أنه ينوي إتمام هذا الواجب قبل إعلان السلم. لا ينوون أن يكونوا في موقع يتسنّى للروس التدخل في المسائل الأرمنية بحجة أن هناك أعداداً كبيرة من الأرمن في روسيا متهمّين بالقلاقل التي تحصل لاخوانهم في تركيا. اعترف مع ذلك أنهم عُوملوا بفظاعة. أرسلت إنساناً ليقوم بتحقيقات وأخبرني أن أبشع الاعتداءات الوحشية ارتكبت من الرسميين الحكوميين الأتراك وقطاع القرق والسجناء.

اقترح وانغنهايم ثانية إرسال الأرمن إلى الولايات المتحدة ومرة أخرى أعطيته أسباب عدم جدوى اقتراحه عملياً. «لا تعير اهتماماً أكبر من اللازم لكل هذه الاعتبارات» قلت «دعنا ننظر إليها من الناحية الانسانية بغض النظر عن الحاجة العسكرية والسياسية. تذكر أن أكثر الناس الذين يعاملون بوحشية هم رجال ونساء مسنون وأطفال لا حول لهم ولا قوة. لماذا لا يمكنك أن ترى أنه يحق لهؤلاء أن يعيشوا كبشر أيضاً».

«لن أتدخل في المسائل الداخلية لتركيا في المرحلة الحالية» قال وانغنهايم.

رأيت أن التباحث معه عن الموضوع كان عديم النفع بعد ذلك أدرت وجهي له بقرف شديد. وقف وانغنهايم ليغادر، وبينما يستعد للانصراف أطلق لهاثاً عميقاً وارتخت رجلاه فجأة. قفزت وأمسكت بالرجل الذي كاد أن يقع. كان فاقد الوعي تماماً لمدة دقيقة تقريباً. نظر إليَّ في ذهول وفجأة استردّ قواه الجسدية وعاد إلى رباطة جأشه. تأبطت ذراع السفير ونزلنا من الدرج ووضعته داخل سيارته. استرد عافيته من نوبة التشويش الذهني تلك، حتى وصوله إلى السيارة ورجع إلى بيته سالماً.

حدث له شلل دماغي بعد يومين وهو جالس أمام طاولة الغذاء. حُـمِـلَ إلى فراشه ولم يفق من سباته أبداً. أخبرت رسمياً أن وانغنهايم توفي في ٢٤ تشرين الأول. مرت أمامي ذكرياتي عن وانغنهايم السفير الذي جلس أمامي في مكتبي في السفارة الأمريكية يرفض بشكل مطلق أن يضغط على الحكومة التركية ليحول دون إبادة أمة. كان الرجل الوحيد وحكومته الوحيدة بامكانهما أن يوقفا هذه الجرائم. لكن قال لي وانغنهايم عدة مرات «إن هدفنا الوحيد هو الانتصار في هذه الحرب».

بعد بضعة أيام قدمت تركيا والهيئات الدبلوماسية اجلالها الأخير لهذا التجسيد المثالي للنظام البروسي. جرى حفل التأبين في حديقة السفارة الألمانية في بيرا Pera التي كانت ملآى بالزهور. وقف هذا الحشد ـــ ما عدا الأهل والسفراء وممثلو السلطان ـــ على أرجلهم طوال مدة المراسيم البسيطة لكن المؤثرة. ثم تشكل الموكب وحمل رجال البحرية الألمانية النعش على أكتافهم، وحمل رجال بحرية آخرون الباقات الضخمة من الزهور وتبع كل أعضاء السلك الديبلوماسي والمسؤولون الأتراك النعش مشياً على الأقدام.

قاد الموكب الوزير الأول. مشيتُ طوال الطريق مع أنور. كان كل الجنرالات الألمان في بزتهم المراسمية الكاملة. يُخيّل للمرء أن كل سكان مدينة القسطنطينية ملأت الشوارع وكأنه يوم عيد. مشينا حتى أراضي (ضوله باهـتشه)[٤] قصر السلطان، القصر الذي يمرّ السفراء من بوابته لتقديم أوراق اعتمادهم. كان قارب بخاري بانتظار وصولنا إلى المرفأ ويقف عليه نيوراث (Neurath) لاستلام جثمان «رئيس العصابة» الميت. وضع النعش الذي كان مغطى كاملاً بالزهور في القارب. وقف نيوراث البروسي صامتاً بينما القارب يبحر في تيار الماء. كان طويل القامة لابساً بزته العسكرية الكاملة وخوذته التي ترفرف عليها الريشة البيضاء. دفن وانغنهايم في حديقة السفارة الصيفية في منطقة ترابيا (Therapia) بجانب رفيقه الكولونيل لا يبزيغ.

---

(٤) أحد الأوابد التي بنتها عائلة باليان الأرمنية.

لم يكن هناك مكان أنسب من هذا لاستراحته الأبدية، لأن هذا المكان كان مسرحاً لنجاحاته الديبلوماسية، وأنه من هذا المكان بالذات قبل أقل من سنتين حَتَّمَ، على جيوش تركيا للانضمام إلى القوات الألمانية. وبذلك مَهَّد السبيل إلى كل الانتصارات وكل ذلك الرعب.

الفصـــل الســابـع

أنـور يثيـر مسـألـة السـلام ثانيـة

وداعـاً للسلطـان ولتركيـا

إن فشلي لايقاف دمار الأرمن جعل من تركيا مكاناً مفزعاً لي. وجدتُ أن احتكاكي واتصالاتي اليومية مع الرجال الذين كانوا لبقين ومجاملين وذوي طباع حسنة معي ولكن لا تزال أيديهم مضرجة بدماء ما يقارب مليون من البشر. كل هذه المحاولات ذهبت سدى. لم أقد أن أتحمل هذا الوضع أكثر من ذلك. لو علمت أنني سأكون ذا نفع للأمريكيين أو لهذه الشعوب المضطهدة في الامبراطورية بعد الآن لبقيت. أصبح وضع الأوروبيين والأمريكيين آمناً الآن وكل حيلة لمساعدة الشعوب الخاضعة أوصلتني إلى طريق مسدود، علاوة على ذلك كان حدث مهم يقترب في الولايات المتحدة. هذا الحدث كان الانتخابات الأمريكية، التي حسب اعتقادي سيكون لها أعظم الأثر على

مستقبل العالم وعلى الديمقراطية. كنت أشعر أنه ليس هناك شيء أهم في السياسة العالمية كإعادة انتخاب الرئيس ويلسون. لا أتصور نكبة أكبر للولايات المتحدة والعالم من أن يفشل الشعب الأمريكي على إعادة انتخاب رجل الدولة هذا بإخلاص. استنتجت أنه بإمكاني أن أخدم بلدي بشكل أفضل هناك في هذا الظرف بالذات، إذا تمكنت في المساعدة على انتخابه. كان هناك سبب جوهري آخر للرجوع إلى بلدي، وهو أن أعطي الرئيس والادارة الأمريكية معلومات شفهية مستقاة من المصدر عن الوضع الأوروبي. كان مهماً بشكل خاص أن أعطيهم المعلومات النهائية الرئيسية والعرضية عن موضوع السلم. كان هذا الموضوع هو الأهم في القسطنطينية في الفترة الأخيرة من عام ١٩١٥ والفترة المبكّرة من عام ١٩١٦. كان أنور باشا يرجو أن التمس الرئيس لإنهاء الحرب. صرّح عدة مرات أن تركيا تَـعِبَـةٌ من الحرب وخلاصها متعلق بالسلام المبكّر.

شرحت سابقاً الظروف التي عمّت بعد بضعة أشهر من اندلاع الحرب. لكن الظروف في نهاية عام ١٩١٥ كانت أردأ بكثير عندما قررت تركيا تهجير وإبادة مواطنيها وخاصة الأرمن واليونانيين. وقعّت بذلك وبنفسها مذكرة دمارها الاقتصادي. هؤلاء الأرمن واليونانيون كانوا يسيطرون على صناعاتها وينظمون شؤونها المالية ويطورون زراعتها. إن النتائج المادية لهذه الجريمة القومية الكبرى تظهر الآن جلية في كل مكان. بقيت الأراضي بدون عناية ومات آلاف الفلاحين يومياً من الجوع. كان الأرمن واليونانيون أكبر دافعي الضرائب لذلك فإن إبادتهم قللت كثيراً من مصادر دخل الدولة وكانت كل الموانىء التركية عملياً محاصرة، فتوقفت جباية الرسوم الجمركية. تركيا بالكاد تتلقى المال الكافي لتفي ديونها فقط، ولا نذكر شيئاً عن النفقات المعيشية ولا عن نفقات الحرب الباهظة. كل هذا يعطي فكرة واضحة عن الوهن المتقدم والمستشري في الاقتصاد التركي. طبعاً كانت لتركيا أسباب كثيرة ما عدا الوضع الاقتصادي المهلهل كي تحرص على السلام العاجل. كان أنور والحزب الحاكم يخافون من الثورة المضادة ما لم تنته الحرب

بسرعة. كتبت إلى الادارة الأمريكية عن هذا الوضع: «هؤلاء الرجال يريدون أن يفعلوا أي شيء في سبيل احتفاظهم بالسلطة».

لم آخذ الحاح أنور عن السلم على محمل الجد. «هل تتكلم من أجلك ومن أجل حزبك في هذا الموضوع؟» سألته «أم تتكلم من أجل ألمانيا أيضاً؟ لا أقدر أن أقدم اقتراحاً منك للولايات المتحدة إلا إذا ساندتك ألمانيا. هل استشرتهم في هذا؟».

«لا» قال أنور «لكنني أعرف كيف يشعرون».

«هذا غير كاف» أجبته «الأفضل أن تتصل معهم مباشرة عن طريق السفارة الألمانية. لا أرغب في قبول اقتراح لم يصادق عليه من قبل حلفاء ألمانيا».

فكّر أنور أن مناقشة الأمر مع السفير الألماني سيكون عقيماً تقريباً، قال مع ذلك بأنه سيسافر إلى أورسوفا (Orsova) وهي مدينة صغيرة على الحدود المجرية ــ الرومانية حيث سيجتمع مع فالكنهاين (Falkenhayn) رئيس أركان الجيش الألماني آنذاك. قال أن فالكنهاين هو صاحب سلطة وسيناقش معه مسألة السلم.

«لماذا تفكر أنه الوقت المناسب الآن لمناقشة مسألة السلم؟» سألته

«لأننا خلال أسبوعين فقط نكون قد أبطلنا بشكل كامل وجود دولة الصرب. نعتقد أن ذلك سيضع الحلفاء في إطار عقلي يجبرهم على مناقشة أمور السلم. إن غاية زيارتي لفالكنهاين هي إتمام الترتيبات لغزو مصر. نترقب خلال بضعة أيام أن تنضم إلينا اليونان. نهيء الآن أطناناً من المؤونة والعلف لإرسالها إلى اليونان. عندما نكسب اليونان في صفنا، ستدخل رومانيا الحرب بدون تأكيد ــ عندما تنضم إلينا اليونان ورومانيا ستكون عندنا جيوش قوية. سنحصل على كل الأسلحة والذخيرة من ألمانيا عندما يفتح الطريق المباشر للخط الحديدي. كل هذه الأمور تجعل من هذا الوقت مناسباً لمناقشة مسألة السلم».

طلبت من وزير الحربية أن يبحث الأمر مع فالكنهاين في المقابلة المقترحة ويخبرني

حلب الشهباء، المحطة النهائية للمهجرين الأرمن

مخيمات اللاجئين الأرمن في حلب (١٩١٥ــ ١٩٤٠)

مدرسة بصفوفها المختلفة في فناء الكنيسة الخشبية في حلب

مدرسة في المخيمات

عن النتيجة عند عودته . وصل هذا الحديث بطريق ما إلى السفير الألماني الجديد غراف فولف مترنيخ (Graf Wolf Metternich) الذي استدعاني رأساً لمناقشة الموضوع . كان ظاهراً من حديثه انه يريد التأثير عليّ في مسألتين . أولاً أن ألمانيا لن تسلّم الالزاس ــ لورين ، وثانياً تصر ألمانيا على ارجاع جميع مستعمراتها . أجبته أنه عديم الفائدة أن نتباحث عن السلم ما لم تنل إنكلترا بعض الانتصارات العسكرية الكبرى .

« هذا ممكن » أجاب غراف « لكنك لا تنتظر أن تسمح ألمانيا لانكلترا أن تنتصر بشكل لكي تكون مستعدة للتفكير في السلام . أعتقد أنك مخطئ في القول أن انكلترا لم تحرز انتصارات كبيرة . أعتقد أن في صالحها العديد من الانتصارات الجوهرية جداً . فكّر معي ماذا فعلت . وطدت من سيادتها المطلقة على البحار وأزاحت تجارة ألمانيا كلها خارجاً . لم تخسر من أراضيها الخاصة حتى ولو قدم ، بل ربحت مستعمرات جديدة واسعة . استولت على قبرص ومصر واحتلّت المستعمرات الألمانية أيضاً وتمتلك القسم الأكبر من وادي بلاد النهرين . كم هو مضحك أن يقال أن إنكلترا لم تربح شيئاً بالحرب » .

جاء أنور إلى السفارة الأمريكية في ١ كانون الأول وأخبرني عن نتائج مقابلته مع فالكنهاين . قال رئيس الأركان الألماني أن ألمانيا ترغب كثيراً في التباحث عن السلم وانها لن تضع شروطها المسبقة ، لأن ذلك يمكن أن يترجم كاشارة ضعف . لكن شيء واحد يمكن أن يتأكدوا منه هو أن الحلفاء يمكنهم الحصول على شروط أحسن في هذا الوقت أكثر من أي زمن في المستقبل . قال أنور أن ألمانيا راغبة في أرجاع الأقاليم التي استولت عليها من الفرنسيين وارجاع عملياً بلجيكا كلها . لكن الشيء الوحيد الذي بُـتَّ فيه جيداً بلا ريب هو تقسيم صربيا النهائي . لا يمكن إرجاع ولو متر واحد من مقدونيا إلى صربيا التي ستصبح بلداً أصغر بكثير عما كانت عليه قبل الحرب . في الحقيقة ستختفي من الوجود كدولة مستقلة . كان معنى هذا واضحاً جداً آنذاك . حصلت ألمانيا على الشيء الذي من أجله دخلت الحرب . حصلت على طريق مستقيم وكامل من

برلين إلى القسطنطينية والشرق. هذا الطريق يشكل قسماً مهما من سياسة «أوروبا الوسطى» البان جرمانية، وبهذا الشكل أصبحت البان جرمانية حقيقة عسكرية منجزة. كانت ألمانيا في الظاهر ترغب بتسليم المناطق الشمالية المحتلة في فرنسا وبلجيكا بشرط سكوت وموافقة الحلفاء على فتوحاتها المذكورة. إن الاقتراح الذي قدمه فالكنهاين لم يختلف عن اقتراح ألمانيا في أواخر عام ١٩١٤. إن نتائج اجتماع أنور فالكنهاين كما روى لي لم تكن خطة ألمانية بحثت بعجالة، بل كانت موجودة منذ البداية.

لم أر في كل هذا أية بوادر خاصة للسلام المبكّر، مع ذلك فكّرت أن أضع هذه الحقائق أمام الرئيس. لذلك طلبت من واشنطن السماح بالتغيّب الذي منح لي.

اجتمعت مع أنور وطلعت لتوديعهم في الثالث عشر من كانون الثاني. كان الرجلان في أشد حالات ابتهاجهما. كانا في الظاهر يقلّبان في عقليهما مثلي كل الأحداث الخطيرة والهامة التي حصلت في تركيا وفي العالم منذ أول مقابلة لي معهم قبل سنتين. في ذلك الوقت كانا مغامرين متهورين وصلا إلى السلطة العليا عن طريق القتل والتآمر والمكيدة. كان وضعهما غير آمن، لأنه في كل لحظة يمكن أن تطمرهما ثورة مضادة في الغموض والابهام الذي انطلقوا منه. لكن هما الآن طاغيا الامبراطورية العثمانية المطلقان والمستبدان، وحلفاء أكبر قوة عسكرية في العالم آنذاك، والمنتصران على الأسطول الانكليزي كما كانا يظنان على نحو سخيف. في لحظة نصرهما الكبير وقبل أسبوعين فقط من جلاء الحلفاء عن مواقعهم في الدردنيل اعتبرا بلادهما قوة عظمى مرة ثانية.

«سمعت أنك ستذهب إلى الوطن لصرف مبالغ كبيرة لإعادة انتخاب رئيسك» قال طلعت. كان هذا تلميحاً مزدوجاً لأنني كنت رئيس اللجنة المالية للجنة القومية الديمقراطية. «هذا تصرف أحمق. لماذا لا تبقى هنا وتعطي ذلك المال لتركيا؟ نحن بحاجة إليه أكثر مما يحتاجه شعبكم، نأمل أن ترجع ثانية قريباً» أضاف بسلوك الشرقي المرائي المهذب. «أنت ونحن كبرنا مع بعضنا البعض، جئت تقريباً في نفس الوقت الذي

استلمنا فيه الحكم، ولا نتصور كيف يمكننا أن نتعرف على شخص آخر غيرك. فنحن مولعون بك أيضاً. كانت لنا اختلافاتنا في الرأي واختلافات مثيرة في بعض الأوقات، لكننا عرفناك عادلاً دائماً واننا نحترم السياسة الأمريكية في تركيا من خلالك. لا نرغب رحيلك حتى لبضعة أشهر».

عبّرت لهم عن سروري لهذه الاطراءات الحلوة: «جميل جداً أن تتكلما بهذا الشكل، لأنكما تطرياني كثيراً وأعلم إنكما راغبان في أن تقدما لي بعض الوعود. إنتما معي فهذه هي فرصتي الأخيرة لأضعكم في الصورة».

«بالنسبة للتبشيريات والكليات والمدارس الأمريكية» قال طلعت ووافقه على ذلك أنور» نعدك بشكل مطلق أنهم لن يُضايَقوا ولن يُمسوا بسوء أبداً ويمكنهم أن يتابعوا أعمالهم كالسابق تماماً.

«ماذا تقول عن البريطانيين والفرنسيين؟» سألته.

«آه، حسناً» قال طلعت مبتسماً «يمكننا أن نلهو معهم في بعض الأحيان ولكن لا تقلق سنهتم بهم جيداً».

تكلمت الآن عن الموضوع الذي جثم بثقله على عقلي وصدري لأشهر عديدة وللمرة الأخيرة سألتهما «ماذا تقولان عن الأرمن؟».

اختفى لطف طلعت في لحظة وأصبحت ملامحه قاسية صلدة ولمعت عنياه مرة أخرى بنار عيون الوحوش الكاسرة:

«ما نفع التكلم عنهم؟» قال وهو يلّوح بيده «انتهينا منهم وانتهى كل شيء».

هكذا كان وداعي الأخير لطلعت «لقد انتهى كل شيء» كانت كلماته الأخيرة.

الـفـهـرس

رؤية أخرى في قتل أمة (بقلم د . عمر الدقاق) ٩

كلمة من القلب ١٥

☐ **الفصل الأول**

التركي يرتد إلى أطباع أسلافه ٢١

☐ **الفصل الثاني**

« الثورة » في مدينة وان ٣٧

☐ **الفصل الثالث**

قتل أمة ٤٥

☐ **الفصل الرابع**

طلعت يشرح أسباب تهجير الأرمن ٧٥

☐ **الفصل الخامس**

أنور باشا يتبادل الآراء حول الأرمن ٩١

☐ **الفصل السادس**

لن أفعل شيئاً لصالح الأرمن ١١١

☐ **الفصل السابع**

أنور يثير مسألة السلام ثانية ١٢٧

هذا الكتاب

لا زالت الحكومات التركية المتعاقبة حتى يومنا هذا تنكر حقيقة المجازر التي نفذتها ضد الشعب الأرمني طوال خمسة قرون مضت وخاصة مجازر السلطان الدموي عبد الحميد ومجازر أدنة عام ١٩٠٨ ثم المجزرة الكبرى والتهجير القسري عام ١٩١٥ والمجازر التي أعقبتها حتى عام ١٩٢٣ في الفترة الكمالية، حيث قتل وذبح أكثر من مليون ونصف أرمني وفرغت أرمينيا التاريخية من سكانها الأصليين.

هذا الكتاب هو مذكرات سفير الولايات المتحدة في تركيا بين عام (١٩١٣ - ١٩١٦) يروي فيه خلال لقاءاته مع الحكام الأتراك المتنفذين والسفير الألماني وأركان سفارته عمق عزمهم لإفناء العرق الأرمني الذي عاش في وطنه أرمينيا لمدة أربعة آلاف سنة بشكل متواصل. يروي السفير كذلك عمق حسن استقبال العرب للمهجرين الأرمن.

توزيع
دار طلاس
لكزارة وعبجي
حلب - السياجي - هاتف: ٤٢٣٩٣١

دار أسامة

دمشق - مكتب عنبر - تلفون ٤٣١٤٨٠ - ص.ب ٤٣٠٦ تلكس ٤١٢٨٩٥ KARAM
بيروت - شارع مار إلياس - تلفون ٣٦٢٤٩١ - ص.ب ١٧/٣٤١٦ تلكس ٤٢٣٨٩ TABBAA